وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ
يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾
وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ
وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ
أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ
وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

و منها: أنهم (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ) محمد ﷺ(تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ)
أثّر ذلك فى قلوبهم و خشعوا له و فاضت أعينهم

*كقوله(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ)آل عمران: ١٩٩

كقوله(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) القصص

(مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ)بسبب ما سمعوا من الحق الذى تيقنوه فلذلك آمنوا و أقروا به فقالوا:–

(يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) و هم أمة محمد ﷺ يشهدون:–

1–لله بالتوحيد

2–و لرسله بالرسالة و صحة ما جاءوا به

3–و يشهدون على الأمم السابقة بالتصديق و التكذيب و هم عدول شهادتهم مقبولة

كما قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)143

*فكأنهم ليموا على إيمانهم و مسارعتهم فيه فقالوا:–

(وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ)أى:و ما الذى يمنعنا من الإيمان بالله

(وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ)و الحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا الذى لا يقبل الشك و الريب

(وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا)و نحن إذا آمنا و اتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة(مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ)

فأى مانع يمنعنا؟

*أليس ذلك موجبا للمسارعة و الانقياد للإيمان و عدم التخلف عنه84

(فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ)أى:-بما تفوهوا به من الإيمان و نطقوا به من التصديق بالحق

(جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)

و هذه الآيات نزلت فى النصارى الذين آمنوا بمحمد ﷺ كالنجاشى و غيره ممن آمن منهم.

و كذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام و يتبين له بطلان ما كانوا عليه

و هم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام85

*ولما ذكر ثواب المحسنين ذكر عقاب المسيئين قال:-(وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ)

لأنهم كفروا بالله و كذبوا بآياته المبينة للحق86

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ)

ما أحل الله هو الطيب 87-88

*مسلم 2356 عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرًا فَتَرَخَّصَ فِيهِ فَبَلَغَ ذَلِكَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَكَأَنَّهُمْ كَرِهُوهُ وَ تَنَزَّهُوا عَنْهُ فَبَلَغَهُ ذَلِكَ فَقَامَ خَطِيبًا فَقَالَ:-«مَا بَالُ رِجَالٍ بَلَغَهُمْ عَنِّي أَمْرٌ تَرَخَّصْتُ فِيهِ فَكَرِهُوهُ وَ تَنَزَّهُوا عَنْهُ فَوَاللهِ لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَ أَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»

*وَ قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ:-كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَجِيءَ بِضَرْعٍ فَتَنَحَّى رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ:- أُدْنُ. فَقَالَ: إِنِّي حَرَّمْتُ أَنْ آكُلَهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: ادْنُ فاطعَم وَ كَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ وَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ} الْآيَةَ

*من المطاعم و المشارب فإنها نعم أنعم الله بها عليكم فـــــــ:-

1-احمدوه إذ أحلها لكم

2-و اشكروه

3-و لا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها أو اعتقاد تحريمها

*فتجمعون بذلك بين:-

1-القول على الله الكذب

2-و كفر النعمة

3-و اعتقاد الحلال الطيب حراما خبيثا

فإن هذا من الاعتداء. و الله قد نهى عن الاعتداء فقال:-

(وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ)بل يبغضهم و يمقتهم و يعاقبهم على ذلك

*يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ:-

1-وَ لَا تُبَالِغُوا فِي التَّضْيِيقِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي تَحْرِيمِ الْمُبَاحَاتِ عَلَيْكُمْ كَمَا قَالَهُ مَنْ قَالَهُ مِنَ السَّلَفِ.

2-وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ:-كَمَا لَا تُحَرِّمُوا الْحَلَالَ فَلَا تَعْتَدُّوا فِي تَنَاوُلِ الْحَلَالِ بَلْ خُذُوا مِنْهُ بِقَدْرِ كِفَايَتِكُمْ وَ حَاجَتِكُمْ وَ لَا تُجَاوِزُوا الْحَدَّ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [آل عمران: 31]

وَ قَالَ: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفُرْقَان: 67]

فشرعُ اللَّهِ عَدَلَ بَيْنَ الْغَالِي فِيهِ وَ الْجَافِي عَنْهُ لَا إِفْرَاطَ وَ لَا تَفْرِيطَ

وَ لِهَذَا قَالَ:-{لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}87

*ثم أمر بضد ما عليه المشركون الذين يحرمون ما أحل الله فقال:-

(وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا)أى:كلوا من رزقه الذى ساقه إليكم بما يسره من الأسباب إذا كان :-

حلالا لا سرقة و لا غصبا و لا غير ذلك من أنواع الأموال التى تؤخذ بغير حق

و كان أيضا (طَيِّبًا)و هو الذى لا خبث فيه فخرج بذلك الخبيث من السباع و الخبائث.

(وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ)فى امتثال أوامره و اجتناب نواهيه.

(ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ)فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه و مراعاة حقه فإنه لا يتم إلا بذلك88

و دلت الآية الكريمة على أنه:-

1-إذا حرم حلالا عليه من طعام و شراب و سرية و أمة و نحو ذلك فإنه لا يكون حراما بتحريمه

لكن لو فعله فعليه كفارة يمين كما قال تعالى:-(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ)الآية

إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار

2-و يدخل فى هذه الآية أنه لا ينبغى للإنسان أن يتجنب الطيبات و يحرمها على نفسه بل يتناولها مستعينا بها على طاعة ربه.

حكم اليمين و كفارة الحنث به 89

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ)

التى صدرت على وجه اللغو و هى الأيمان التى حلف بها المقسم من غير نية و لا قصد

أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك.

(وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ)عزمتم عليه (ٱلْأَيْمَٰنَ)و عقدت عليه قلوبكم.كما قال فى الآية الأخرى:-

(وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ)

(فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ)أى: كفارة اليمين الذى عقدتموها بقصدكم

(إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ)لكل مسكين صاع و ذلك الإطعام(مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ)

أى:كسوة عشرة مساكين و الكسوة هى التى تجزئ فى الصلاة.

(أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ)عتق رقبة مؤمنة كما قيدت فى غير هذا الموضع

فمتى فعل واحدا من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه.

*فَهَذِهِ خِصَالٌ ثَلَاثٌ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ أيُّها فَعَلَ الحانثُ أَجْزَأَ عَنْهُ بِالْإِجْمَاعِ. وَ قَدْ بَدَأَ بِالْأَسْهَلِ فَالْأَسْهَلِ فَالْإِطْعَامُ أَيْسَرُ مِنَ الْكِسْوَةِ كَمَا أَنَّ الْكِسْوَةَ أَيْسَرُ مِنَ الْعِتْقِ فَرُقِىَ فِيهَا مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى.

(فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ)واحدا من هذه الثلاثة(فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ)المذكور(كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ)

تكفرها و تمحوها و تمنع من الإثم.

(وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ)لا تتركوها بغير تكفير–عن الحلف بالله كاذبا و عن كثرة الأيمان و احفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها إلا إذا كان الحنث خيرا فتمام الحفظ:–أن يفعل الخير و لا يكون يمينه عرضة لذلك الخير.

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ)المبينة للحلال من الحرام الموضحة للأحكام.

(لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ)اللهَ حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

فعلى العباد شكر الله تعالى على ما منَّ به عليهم من معرفة الأحكام الشرعية و تبيينها

*جاء فى الصحيح المسند من أسباب النزول:ابن ماجه2113 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺقَالَ:-
كَانَ الرَّجُلُ يَقُوتُ أَهْلَهُ قُوتًا فِيهِ سَعَةٌ و كَانَ الرَّجُلُ يَقُوتُ أَهْلَهُ قُوتًا فِيهِ شِدَّةٌ فَنَزَلَتْ:-

{مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ}[المائدة: 89] ٨٩

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ
فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾
لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ
تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ
يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ
عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

النهى عن الخمر و الميسر و الانصاب و الأزلام 90-93

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ)كل ما خامر العقل أى: غطاه بسكره

*الصحيح المسند من أسباب النزول:ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:-
نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا حتى إذا ثملوا عبث بعضهم ببعض
فلما أن صحوا جعل الرجل منهم يرى الأثر بوجهه و لحيته فيقول: فعل بي هذا أخى فلان و كانوا إخوة
ليس في قلوبهم ضغائن و الله لو كان بي رءوفا رحيما ما فعل بى ذا حتى وقعت في قلوبهم الضغائن
فأنزل الله تعالى {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ} إلى قوله {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}
فقال ناس من المتكلفين هى رجس و هى فى بطن فلان قتل يوم بدر وقتل فلان يوم أحد
فأنزل الله {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا} الآية.

(يسرى الأمر على المخدرات)

(وَٱلۡمَيۡسِرُ) الْقِمَارُ- هو:–جميع المغالبات التى فيها عوض من الجانبين كالمراهنة و نحوها

*مسلم (2260) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:-
«مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ(هو النرد فالنرد عجمى معرب وشير معناه حلو) فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَ دَمِهِ»
*وَ أَمَّا الشِّطْرَنْجُ :-
نَصَّ عَلَى تَحْرِيمِهِ مَالِكٌ وَ أَبُو حَنِيفَةَ وَ أَحْمَدُ وَ كَرِهَهُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.
قَالُوا:- كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْقِمَارِ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ حَتَّى لَعِبِ الصِّبْيَانِ بِالْجَوْزِ.

(وَٱلۡأَنصَابُ)الأصنام و الأنداد و نحوها مما يُنصب و يُعبد من دون الله و كَانُوا يَذْبَحُونَ قَرَابِينَهُمْ عِنْدَهَا

(وَٱلۡأَزۡلَٰمُ)القداح التى يستقسمون بها

(رِجۡسٞ)شر(مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ)اتركوه -الضمير عائد على الرجس

(لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ)

فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله خصوصا هذه الفواحش المذكورة فهذه الأربعة نهى الله عنها و زجر و أخبر عن مفاسدها الداعية إلى تركها و اجتنابها:-

1-أنها رجس أى:خبث نجس معنى و إن لم تكن نجسة حسا. و الأمور الخبيثة مما ينبغى اجتنابها و عدم التدنس بأوضارها.

2-أنها من عمل الشيطان الذى هو أعدى الأعداء للإنسان

(إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ)بتزيين الآثام لكم(أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ)ما يوجد(ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي)بسبب شرب(ٱلۡخَمۡرِ)

(و)لعب (وَٱلۡمَيۡسِرِ)

و من المعلوم أن العدو يحذر منه و تحذر مصايده و أعماله خصوصا الأعمال التى يعملها ليوقع فيها عدوه فإنها فيها هلاكه فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين و الحذر منها و الخوف من الوقوع فيها.

*أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها

فإن الفلاح هو:-

1-الفوز بالمطلوب المحبوب

2-و النجاة من المرهوب

و هذه الأمور مانعة من الفلاح و معوقة له أن هذه موجبة للعداوة و البغضاء بين الناس و الشيطان حريص على بثها خصوصا الخمر و الميسر ليوقع بين المؤمنين العداوة و البغضاء.

*فإن فى الخمر من:-

انغلاب العقل و ذهاب حجاه ما يدعو إلى البغضاء بينه و بين إخوانه المؤمنين

خصوصا إذا اقترن بذلك من السباب ما هو من لوازم شارب الخمر فإنه ربما أوصل إلى القتل.

الاحاديث الواردة فى تحريم الخمر:-

*البخارى4619 عَنِ ابْنِ عُمَرَ﵄ قَالَ:-سَمِعْتُ عُمَرَ ﵁عَلَى مِنْبَرِ النَّبِىِّ ﷺيَقُولُ:-
أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ وَ هْىَ مِنْ خَمْسَةٍ مِنْ:-
العِنَبِ وَ التَّمْرِ وَ العَسَلِ وَ الحِنْطَةِ وَ الشَّعِيرِ وَ الخَمْرُ مَا خَامَرَ العَقْلَ "

*مسلم (1579) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ وَعْلَةَ السَّبَإِىِّ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ عَمَّا يُعْصَرُ مِنَ الْعِنَبِ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ﵄:-إِنَّ رَجُلًا أَهْدَى لِرَسُولِ اللهِ ﷺرَاوِيَةَ خَمْرٍ(قربة ممتلئة خمرا) فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: -
«هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَهَا؟» قَالَ: لَا فَسَارَّ إِنْسَانًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بِمَ سَارَرْتَهُ؟»
فَقَالَ: أَمَرْتُهُ بِبَيْعِهَا فَقَالَ:«إِنَّ الَّذِى حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا»قَالَ:-

فَفَتَحَ الْمَزَادَةَ(ما يتزود فيها الماء فى السفر وغيره وقيل لأنه يزاد فيها جلد لتتسع) حَتَّى ذَهَبَ مَا فِيهَا

*أبي داود 3674 عن ابْنِ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ وَ شَارِبَهَا وَ سَاقِيَهَا وَ بَائِعَهَا وَ مُبْتَاعَهَا وَ عَاصِرَهَا وَ مُعْتَصِرَهَا وَ حَامِلَهَا وَ الْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ»

*مسلم(1748) عن مُصْعَبِ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ:-

1-حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لَا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ وَ لَا تَأْكُلَ وَ لَا تَشْرَبَ قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ وَ أَنَا أُمُّكَ وَ أَنَا آمُرُكَ بِهَذَا. قَالَ: مَكَثَتْ ثَلَاثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ فَسَقَاهَا فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ:

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي}وَ فِيهَا {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} [لقمان: 15]

قَالَ: وَ أَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَنِيمَةً عَظِيمَةً فَإِذَا فِيهَا سَيْفٌ فَأَخَذْتُهُ فَأَتَيْتُ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ

فَقُلْتُ: نَفِّلْنِي هَذَا السَّيْفَ فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ حَالَهُ فَقَالَ: «رُدُّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ»

فَانْطَلَقْتُ حَتَّى إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُلْقِيَهُ فِي الْقَبَضِ(الموضع الذى يجمع فيه الغنائم)لَامَتْنِي نَفْسِي فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ:-

أَعْطِنِيهِ قَالَ فَشَدَّ لِي صَوْتَهُ «رُدُّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ» قَالَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:-{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ} [الأنفال: 1]

قَالَ:-وَ مَرِضْتُ فَأَرْسَلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَانِي فَقُلْتُ: دَعْنِي أَقْسِمْ مَالِي حَيْثُ شِئْتُ

قَالَ فَأَبَى قُلْتُ: فَالنِّصْفَ قَالَ فَأَبَى قُلْتُ: فَالثُّلُثَ قَالَ فَسَكَتَ فَكَانَ بَعْدُ الثُّلُثُ جَائِزًا.

قَالَ:-وَ أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَ الْمُهَاجِرِينَ فَقَالُوا: تَعَالَ نُطْعِمْكَ وَ نَسْقِكَ خَمْرًا وَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الْخَمْرُ قَالَ فَأَتَيْتُهُمْ فِي حَشٍّ-وَ الْحَشُّ الْبُسْتَانُ-فَإِذَا رَأْسُ جَزُورٍ مَشْوِيٌّ عِنْدَهُمْ وَ زِقٌّ مِنْ خَمْرٍ.

قَالَ فَأَكَلْتُ وَ شَرِبْتُ مَعَهُمْ قَالَ فَذَكَرْتُ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرِينَ عِنْدَهُمْ.

فَقُلْتُ: الْمُهَاجِرُونَ خَيْرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ. قَالَ فَأَخَذَ رَجُلٌ أَحَدَ لَحْيَيِ الرَّأْسِ فَضَرَبَنِي بِهِ فَجَرَحَ بِأَنْفِي

فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ - يَعْنِي نَفْسَهُ - شَأْنَ الْخَمْرِ:

{إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} [المائدة: 90]

*أبي داود 3675 عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَيْتَامٍ وَرِثُوا خَمْرًا قَالَ: «أَهْرِقْهَا» قَالَ:- أَفَلَا أَجْعَلُهَا خَلًّا؟ قَالَ: «لَا»

*البخارى 5575 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ»

أي حرم من خمرة الجنة وهي ليست كخمرة الدنيا في سكرها وضررها وكراهة مذاقها وخبث رائحتها بل هي شراب لذيذ ممتع من أشهى أشربة الجنة. والحرمان منها يعني عدم دخول الجنة حتى يعاقب على شرب خمر الدنيا أو أنه يحرم منها أبدا حتى ولو دخل الجنة]

*مسلم (2459) عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ

{لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا}[المائدة: 93] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ

قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قِيلَ لِي أَنْتَ مِنْهُمْ(معناه أن ابن مسعود منهم)»

*و ما فى الميسر من:–

1–غلبة أحدهما للآخر 2–و أخذ ماله الكثير فى غير مقابلة ما هو من أكبر الأسباب للعداوة و البغضاء.

3–أن هذه الأشياء تصد القلب و يتبعه البدن عن ذكر الله و عن الصلاة اللذين خلق لهما العبد و بهما سعادته

فالخمر و الميسر:–

1-يصدانه عن ذلك أعظم صد و يشتغل قلبه

2-و يذهل لبه فى الاشتغال بهما حتى يمضى عليه مدة طويلة و هو لا يدرى أين هو.

3-فأى معصية أعظم و أقبح من معصية تدنس صاحبها

4-و تجعله من أهل الخبث

5-و توقعه فى أعمال الشيطان و شباكه فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها و تحول بين العبد و بين فلاحه

6-و توقع العداوة و البغضاء بين المؤمنين

7-(وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ)فهل فوق هذه المفاسد شيء أكبر منها؟ !!

و لهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهى عنها عرضا بقوله:-(فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ)

لأن العاقل-إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد-انزجر عنها و كفت نفسه و لم يحتج إلى وعظ كثير و لا زجر بليغ

(وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ)

طاعة الله و طاعة رسوله واحدة فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول و من أطاع الرسول فقد أطاع الله.

و ذلك شامل للقيام بما أمر الله به و رسوله من :-

الأعمال و الأقوال الظاهرة و الباطنة الواجبة و المستحبة المتعلقة بـــ:-

حقوق الله و حقوق خلقه و الانتهاء عما نهى الله و رسوله عنه كذلك.

و هذا الأمر أعم الأوامر فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر و نهى ظاهر و باطن

(وَٱحْذَرُواْ)أى: من معصية الله و معصية رسوله فإن فى ذلك الشر و الخسران المبين.

(فَإِن تَوَلَّيْتُمْ)عما أمرتم به و نهيتم عنه.

(فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ)و قد أدى ذلك. فإن اهتديتم فلأنفسكم و إن أسأتم فعليها

و الله هو الذى يحاسبكم و الرسول قد أدى ما عليه و ما حمل به ﴿٩٢﴾

*لما نزل تحريم الخمر و النهى الأكيد و التشديد فيه تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر و هم يشربونها.فأنزل الله هذه الآية و أخبر تعالى أنه:-

(لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ)حرج و إثم (فِيمَا طَعِمُوٓاْ)من الخمر و الميسر قبل تحريمهما.

*و لما كان نفى الجناح يشمل المذكورات و غيرها قيد ذلك بقوله:-

(إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ)

أى:بشرط أنهم تاركون للمعاصى مؤمنون بالله إيمانا صحيحا موجبا لهم عمل الصالحات ثم استمروا على ذلك. و إلا فقد يتصف العبد بذلك فى وقت دون آخر.فلا يكفى حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله و يدوم على إحسانه

(وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ)فى عبادة الخالق المحسنين فى نفع العبيد

و يدخل فى هذه الآية الكريمة:–من طعم المحرم أو فعل غيره بعد التحريم

ثم اعترف بذنبه و تاب إلى الله و اتقى و آمن و عمل صالحا فإن الله يغفر له و يرتفع عنه الإثم فى ذلك

الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى 2464 -عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه كُنْتُ سَاقِيَ القَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ
وَ كَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الفَضِيخَ(شراب يتخذ من البسر المفضوخ من الفضخ وهو كسر الشيء الأجوف والبسر نوع من التمر)
فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺمُنَادِيًا يُنَادِي: «أَلاَ إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ»
قَالَ:-فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا(من الإهراق وهو الإسالة والصب وأصله الإراقة والهاء زائدة)فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا فَجَرَتْ
فِي سِكَكِ(جمع سكة وهي الطريق)المَدِينَةِ فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ:-قَدْ قُتِلَ قَوْمٌ وَ هِيَ فِي بُطُونِهِمْ(أي ولم يمض على شربهم لها زمن طويل)
فَأَنْزَلَ اللَّهُ:-{لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا} [المائدة: 93] ﴿٩٣﴾

*من منن الله على عباده أن أخبرهم بما سيفعل قضاء و قدرا ليطيعوه و يقدموا على بصيرة و يهلك من هلك عن بينة و يحيا من حى عن بينة فقال تعالى:–(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)لا بد أن يختبر الله إيمانكم.

(لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ)غير كثير(مِّنَ ٱلصَّيْدِ)فتكون محنة يسيرة تخفيفا منه تعالى و لطفا

النهى عن الصيد فى حالة الاحرام 94-100

و ذلك الصيد الذى يبتليكم الله به (تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ)صغار الصيد و فراخه

(وَرِمَاحُكُمْ)كباره

أى:تتمكنون من صيده ليتم بذلك الابتلاء لا غير مقدور عليه بيد و لا رمح فلا يبقى للابتلاء فائدة.

*ثم ذكر الحكمة فى ذلك الابتلاء فقال:–

(لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ)علما ظاهرا للخلق يترتب عليه الثواب و العقاب

(مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ)أَنَّهُ تَعَالَى يَبْتَلِيهِمْ بِالصَّيْدِ يَغْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ يَتَمَكَّنُونَ مِنْ أَخْذِهِ بِالْأَيْدِي وَ الرِّمَاحِ سِرًّا وَ جَهْرًا لِيُظْهِرَ طَاعَةَ مَنْ يُطِيعُ مِنْهُمْ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-
{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الْمُلْكِ:12] .

*فيكف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه و تمكنه فيثيبه الثواب الجزيل ممن لا يخافه بالغيب فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه

(فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ)منكم (بَعْدَ ذَٰلِكَ)البيان الذى قطع الحجج و أوضح السبيل.

(فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ)مؤلم موجع لا يقدر على وصفه إلا الله لأنه لا عذر لذلك المعتدى

و الاعتبار بمن يخافه بالغيب و عدم حضور الناس عنده.

و أما إظهار مخافة الله عند الناس فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس فلا يثاب على ذلك(٩٤)

*ثم صرح بالنهى عن قتل الصيد فى حال الإحرام فقال:–

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ)أى: محرمون فى الحج و العمرة

وَ هَذَا تَحْرِيمٌ مِنْهُ تَعَالَى لِقَتْلِ الصَّيْدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ وَ نُهِيَ عَنْ تَعَاطِيهِ فِيهِ.

وَ لَا يُسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ:-

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-خَمْسُ فَواسِق يُقْتَلْنَ فِي الحِلِّ و الحَرَم:-

الغُراب وَ الْحِدَأَةُ و العَقْرب وَ الْفَأْرَةُ وَ الْكَلْبُ العَقُور".

قَالَ أَيُّوبُ قُلْتُ لِنَافِعٍ: فَالْحَيَّةُ؟ قال: الحية لا شك فِيهَا وَ لَا يُخْتَلَفُ فِي قَتْلِهَا.

وَ مِنَ الْعُلَمَاءِ- كَمَالِكٍ وَ أَحْمَدَ-مَنْ أَلْحَقَ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ:-

الذِّئْبَ و السَّبُعَ و النِّمْر و الفَهْد لِأَنَّهَا أَشَدُّ ضَرَرًا مِنْهُ فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

*و النهى عن قتله يشمل :–

1–النهى عن مقدمات القتل 2–و عن المشاركة فى القتل 4–و الدلالة عليه 5–و الإعانة على قتله

حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قُتل أو صيد لأجله

*و هذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم أنه يحرم على المحرم قتل و صيد ما كان حلالا له قبل الإحرام.

(وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا)وَ الَّذِى عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ الْعَامِدَ وَ النَّاسِيَ سَوَاءٌ فِي وُجُوبِ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ.

أي: قتل صيدا عمدا (ف) عليه (فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ)الإبل أو البقر أو الغنم فينظر ما يشبه شيئا من ذلك فيجب عليه مثله يذبحه و يتصدق به.

و الاعتبار بالمماثلة أن(يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ)عدلان يعرفان الحكم و وجه الشُبه كما فعل الصحابة ﷺ

حيث قضوا بـــــ:–

الحمامة شاة و فى النعامة بدنة و فى بقر الوحش–على اختلاف أنواعه–بقرة و فى الغزال بعنز

و هكذا كل ما يشبه شيئا من النعم ففيه مثله فإن لم يشبه شيئا ففيه قيمته كما هو القاعدة فى المتلفات و ذلك الهدى لا بد أن يكون

(هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ)يذبح فى الحرم.

(أَوۡ كَفَّٰرَةٞ)ذلك الجزاء (طَعَامُ مَسَٰكِينَ)أى:–يجعل مقابلة المثل من النعم طعام يطعم المساكين.

قال كثير من العلماء:–يقوم الجزاء فيشترى بقيمته طعام فيطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصفَ صاع من غيره.

(أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ)الطعام (صِيَامٗا)أى:يصوم عن إطعام كل مسكين يوما.

(لِّيَذُوقَ)بإيجاب الجزاء المذكور عليه(وَبَالَ)عقوبة(أَمۡرِهِۦۗ)فعله الذى ارتكب فيه المخالفة

(عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ)فى زمان الجاهلية لمن أحسن فى الاسلام و اتبع شرع الله و لم يرتكب المعصية

(وَمَنۡ عَادَ)بعد ذلك–وَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَ بُلُوغِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ إِلَيْهِ

(فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ)

و إنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد مع أن الجزاء يلزم المتعمد و المخطئ

كما هو القاعدة الشرعية–أن المتلف للنفوس و الأموال المحترمة فإنه يضمنها على أي حال كان إذا كان إتلافه بغير حق لأن الله رتب عليه الجزاء و العقوبة و الانتقام و هذا للمتعمد.

*و أما المخطئ فليس عليه عقوبة إنما عليه الجزاء هذا جواب الجمهور من هذا القيد الذى ذكره الله.

و طائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمد و هو ظاهر الآية.

*و الفرق بين هذا و بين التضمين فى الخطأ في النفوس و الأموال فى هذا الموضع الحق فيه لله فكما لا إثم

لا جزاء لإتلافه نفوس الآدميين و أموالهم95

اضرار الخمـر:- الرابط

أضرار الخمر على الجهاز التنفسى د/ شبيب بن على الحاضرى

الجهاز التنفسى آية من آيات الله المعجزة التى ترينا عظمة الخالق و قدرته-سبحانه-على إبداع خلقه و إتقانه لكل شىء قال تعالى:-(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (النمل: 88).

هذا الجهاز الحيوى: أعضاؤه قليلة لكن أعماله جليلة..يبدأ بالأنف فالبلعوم فالحنجرة فالقصبة الهوائية فالشعب الهوائية و ينتهى بالرئتين.إنه جهاز التكرير فى الجسم يمده بالأكسجين و ينتزع منه ثانى أكسيد الكربون و أى عطب فى هذا الجهاز يؤثر على حياة كل خلية فى هذا الجسم.

*** فماذا تفعل الخمر مع أعضاء هذا الجهاز الحساس؟**

(1) الأنف:

إنه المكيف الربانى الذي هيأ الله فيه أغشية مخاطية تدفىء الهواء البارد وترطب الهواء الساخن ليس هذا فحسب بل حباه الله بشعيرات تحجز الأتربة والأوساخ وتمنعها من الدخول إلى المجاري التنفسية.

والأنف كما نعلم هو عضو الشم في جسم الإنسان بواسطته يستطيع المرء التميز بين الروائح المختلفة و قد وجد أن الإدمان على تعاطى الخمور يضعف تلك الحاسة المهمة مما قد يؤدي في النهاية إلى فقد تلك النعمة التي أنعم الله بها على هذا الإنسان.كما تتسبب الخمر في إصابة الأنف بالورم الفقاعى (Rhinophyma) **أو ما يعرف بأنف السكير حيث يحدث تشوه بالغ فى الأنف قد يحتاج معه الأمر إلى إجراء عملية تجميل.**

(2) البلعوم:

هو الممر الذى يتفرع منه كل من المرىء (الذى يقوم بتوصيل الطعام إلى المعدة) و الحنجرة و القصبة الهوائية (اللتين تقومان بتوصيل الهواء إلى الرئتين).

ولكن كيف يتم التحكم في ذهاب كل من الطعام و الهواء دون أن يخطئ كل منهما الطريق؟

إنها عناية البارئ جل فى علاه وقدرته على إبداع الخلق و تقديره الحكيم قال تعالى:-

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى49 قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾طه
فلقد جعل المولى ـ سبحانه وتعالى ـ حارساً أميناً على هذين الممرين الحيويين يعرف بلسان المزمار(Epiglottis).
و تتجلى قدرة الخالق العظيم فى الدقة المتناهية لهذا العضو الحساس فلو أن أحدنا أراد أن يبلع لقمة أو حتى أن يبلع ريقه فإن لسان المزمار يقوم بغلق منافذ الحنجرة والقصبة الهوائية حتى لا يتسرب شيء من الطعام أو الريق إلى الرئتين فيغص بهما الإنسان و يسببان له اختناقاً وربما التهاباً رئوياً في حين لو أراد أحدنا أن يتنفس فإن هذا العضو يقوم بغلق مجرى الطعام ليدخل الهواء سهلاً إلى الرئتين عن طريق الحنجرة..
فسبحان الخالق العظيم القائل: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾(لقمان: 11).
و هذا العضو يستلهم أوامره بإذن الله من الجهاز العصبى الأمر الذى ينتج عنه عدم قدرة الجهاز العصبى على إرسال الأوامر إلى ذلك الحارس الأمين فلا يستطيع أن يقوم بالمهمة التى هيأه الله لها فلذا نجد شارب الخمر كثيراً يغص بريقه أو بلقمة صغيرة مما يؤدى إلى إصابته بالاختناق و السعال الحاد وربما الموت.
و تتسبب الخمر إلى جانب ذلك بإصابة البلعوم بالالتهابات المتكررة(Pharyngitis)و التى تجعل المريض يكره حياته نتيجة لتكررها حيث يصاب بصعوبة فى البلع بشكل دائم إلى غير ذلك من الأعراض.
و قد أثبتت الأبحاث العلمية دور الكحول فى الإصابة بسرطان البلعوم.
(3) الحنجرة:
عضو صغير لا يتعدى طولها (5سم)..إلا أن دورها ليس بالأمر السهل. فعند حركة البلع ترتفع الحنجرة فتساعد بذلك على سهولة حركة لسان المزمار.. فينغلق بذلك منفذ القصبة الهوائية و ينفتح المرىء كما أنها تقوم بوظيفة عظيمة في عملية الكلام نظراً لاحتوائها على الحبال الصوتية.
و لكن ما تأثير الكحول على الحنجرة؟
من الملاحظ أنه عندما يصل شارب الخمر إلى مرحلة السكر فإنه يفقد السيطرة على سلوكه
و تتحرر بذلك القيود التى كانت تكبح جماحه فيبدأ بالصراخ بصوت عال و يُكْثِرُ من الكلام و ربما الغناء
و كل ذلك يؤدى إلى إصابة الحنجرة بالالتهاب الحاد إذا تكرر هذا الأمر كما أن الحنجرة تلتهب من جراء طعم الكحول اللاذع و الحاد فلذا نلاحظ أن المدمن كثيراً ما يصاب بسعال دائم و بحة و خشونة في صوته و ذلك بسبب تورم الحبال الصوتية نتيجة للالتهاب الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى ضعف مقاومتها تجاه الجراثيم فتصبح فريسة سهلة لأنواع عديدة من هذه الجراثيم و خصوصاً بكتريا السل.
كما يؤثر الكحول في الإصابة بسرطان الحنجرة.كيف تؤثر الخمر على القصبة الهوائية؟
يتسبب الكحول في إصابة القصبة الهوائية و تفرعاتها بالأمراض التالية:-
أ ـ التهاب القصبات المزمن (chronic bronchitis):-
لقد لاحظ الباحثون كثرة انتشار التهاب القصبات المزمن لدى المدمنين على الخمور حيث يصاب المدمن بنوبات من السعال الشديد و المستمر مصحوباً فى غالب الأحيان ببلغم(sputum)و قد يكون هذا البلغم مخلوطاً بدم أحياناً.كما يعانى المريض من ضيق فى صدره يجعله غير قادر على التنفس بشكل طبيعى.
و يرجع العلماء سبب انتشار هذا المرض لدى المدمنين إلى الآتى:-
1ـ العلاقة الحميمة و الصداقة الوطيدة التى تربط إدمان الخمور بعادة التدخين حيث إنه من النادر أن نجد مدمناً على الخمر لا يدخن.
2ـ تكرر إصابة القصبات بالالتهاب نتيجة لتكرر إصابة المدمن باستنشاق(Aspiration)الأجسام الغريبة من ريق و طعام و جراثيم وغيرها كما يساعد فى ذلك تأثر منعكس السعال(cough refiex)الذى يتأثراً بالغاً.

3ـ سوء التغذية الذى يصيب معظم المدمنين.

ب ـ توسع القصبات (Bronchiectasis):-

يحدث هذا المرض نتيجة لتكرر إصابة المدمن بالالتهابات الرئوية و تراكم الإفرازات التى تؤدى إلى انسداد القصبات و من ثم إصابتها بالإنتانات مما يؤدى فى النهاية إلى تأثر تلك القصبات و فقدانها لقوامها فتتوسع توسعاً لا يمكن بعده أن تعود لحالتها الأولى.

و ذلك التوسع يؤدى إلى مشكلات عديدة بالنسبة للمريضحيث تزداد نوبات السعال حدة وتكرراً كما يزداد إفراز البلغم من المريض بشكل كثيف و قد يرافق السعال خروج كمية من الدم (Haemoptysis)

و يتعرض معها المريض للإصابة بالتهاب القصبات بشكل متكرر و نتيجة لذلك تنقلب حياة المريض إلى جحيم لا يطاق ـ فالحمد الله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من خلقه.

ج ـ هبوط فى عملية التنفس (Respiratory failure):-

لقد وجد الباحثون أن الإدمان على الكحول يتسبب في رفع نسبة حدوث هبوط (فشل) عملية التنفس عند المصابين باعتلال الرئة الانسدادية المزمن (COPD).و ذلك للأسباب التالية:-

(1) التأثير السمى المباشر للكحول على مراكز التنفس فى الدماغ مما يؤدى إلى تثبيطها.

(2) دور الكحول فى إصابة المدمن بالالتهابات الرئوية المتكررة.

(3) يعتبر مدمنو الخمور هم أكثر الناس عرضة للكسور التى تصيب أضلاع القفص الصدرى و خصوصاً عند تماديهم فى الشراب مما يؤدى إلى إعاقة دور القفص الصدرى فى عملية التنفس.

(4)تعرض عضلات التنفس للضعف نتيجة لنقص الفوسفات(Hypophosphatemia)الذى تحتاجه العضلات

(5)انسداد الحنجرة الذى ينتج عن اعتلال العصب الحرقفى العاشر(المبهم)عند الكحولى(Alcoholic vagal neuropathy) و الذى يصاحب انحلال المخيخ الحاد(Acute cerebellar degeneration)عند المدمنين على تعاطى الخمور.

و قد سجلت حالة لهبوط التنفس عند أحد المدمنين على الكحول يبلغ من العمر ستاً وأربعين عاماً.

(5)الرئتان:هما نهاية المطاف للجهاز التنفسى.. محميتان ـ بفضل الله ـ داخل القفص الصدرى و تشبه الرئتان فى شكليهما الإسفنج إلى حد بعيد و تعتبر الرئة اليمنى أكبر حجماً من اليسرى و تنقسم إلى ثلاثة فصوص في حين أن الرئة اليسرى تنقسم إلى فصين فقط.

و جهاز التنقية (الرئتان) يقوم بإمداد الدم بالأكسجين اللازم للخلايا و سحب ثانى أكسيد الكربون و ذلك من خلال الدورة الرئوية (الصغرى).و تتم هذه العملية في دقة محكمة و إبداع منظم

فماذا تفعل الخمر بالرئتين؟

لقد كان الباحثان (بورش)و (دى باسكويل) هما أول من وصف اعتلال الرئة الكحولى (Alcoholic lung disease) بعد أن وجدا تغيرات هستولوجية في البنية الهيكلية للرئتين من جراء الإدمان على الكحول.

وقد أثبتت بعض الأبحاث تأثير إدمان الكحول على الوظائف الفسيولوجية للرئتين و خصوصاً قدرة الرئتين على استيعاب أحجام معينة من الغازات(Lung volumes)و السعة الانتشارية للغازات (Diffusing capacity).

كما يتسبب الكحول بتأثيره السام في تقليل كمية الأكسجين (Hypoxia) فى الدم و رفع نسبة ثانى أكسيد الكربون (Hypercapnia)

لذا نجد أن الرئتين تحاولان التخلص من هذا السم الخبيث لهذا تشم رائحة الكحول فى زفير السكير.

و يستطيع الإنسان من خلال جهاز خاص أن يعرف نسبة تركيز الكحول فى دم السكير و هذا الجهاز يستخدمه رجال المرور فى أوروبا و أمريكا حيث تحدد نسبة معينة للكحول فى دماء السائقين لا ينبغى تعديها.

كما لوحظ أنه عند ارتفاع شارب الخمر إلى مكان مرتفع أو صعوده في الطائرة إلى ارتفاعات شاهقة فإن الكحول يتسبب في نقص الأكسجين بشكل كبير مما قد يؤدى إلى إصابته بالاختناق و ربما الموت..
و لذا فإن تعليمات الطيران فى الولايات المتحدة تحظر على الطيارين تناول أية مشروبات كحولية قبل طيرانهم بثمانى ساعات
كما تفيد بعض التقارير بأن (44%) من حوادث الطيارين غير التجاريين سببها شرب الخمر رغم أن نسبة الكحول فى دمائهم لم تزد عن (4%) (أقل من أربعة كؤوس فى ثلاث ساعات).
و هناك تحليل علمى يؤكد بأنه إذا كان وزن الشخص (72) كيلو غراماً و شرب (8) أوقيات من الويسكى أو (96) من البيرة فى ظرف ساعتين و جب أن تمر عليه (10) ساعات قبل أن تعود نسبة الكحول فى دمه إلى درجة الصفر.
*كما يتسبب الكحول فى العديد من الأمراض التى تصيب الرئتين منها:-
أـ التهاب الرئة الاستنشاقى (Aspiration pneumonia):-
لقد هيأ المولى ـ جل فى علاه ـ من وسائل الحماية للرئتين ما يجعلهما فى مأمن-بإذن الله ـمن دخول أى جسم غريب.. و من تلكم الوسائل:-
1ـ منعكس السعال(Cough reflex)الذى يعمل على طرد أى جسم غريب يدخل إلى المجارى التنفسية بسرعة فائقة.
2ـ حركة الشعيرات التى تمتد على طوال الجهاز التنفسى و التى تعمل كسد منيع فى وجه الأجسام الغريبة حيث تدفعها إلى خارج الجهاز التنفسى كما يلعب السائل المخاطى دوراً مهماً فى الحد من تقدم هذه الأجسام و من ثم لفظها إلى الخارج.
3 ـ دور لسان المزمار و الحنجرة ـ كما سبق شرحه.
4 ـ خاصية البلع (البلعمة)(Phagocytosis)التى تتمتع بها كريات الدم البيضاء و البالعات الحويصلية الكبيرة (Alveolar macrophages)و التى تستطيع ـ بفضل الله ـ تحطيم أى جسم غريب يصل إلى الرئتين.
كل تلك الوسائل التى هيأها الله ـ تعالى ـ لتطهير الرئتين و الدفاع عنهما تتأثر تأثراً بالغاً بالكحول مما يجعل المدمنين على الخمور هم أكثر الناس عرضة للإنتانات و الأمراض الرئوية الأخرى.
و ليس هذا فحسب بل تشترك عوامل أخرى فى التأثير على الرئتين من جراء تعاطى الخمور و منهـا:-
1 ـ انخفاض قدرة المدمن على مقاومة الأمراض و ذلك لتأثير الكحول على خاصية البلع-كما ذكرنا سابقاًـ بالإضافة إلى تأثير الكحول على حركة كريات الدم البيضاء و البالعات الحويصلية الكبيرة و منعها من التوجه إلى أماكن العدو و انخفاض تكوين الأجسام المضادة.
2 ـ يتسبب الكحول فى نقص الأحماض الدهنية التي تعتبر مصدراً لتكوين الدهون للحويصلات الهوائية (الأنساخ) و بذا يمكن أن يحدث تحطم لا رجعى فى الهيكل البنيوى للرئتين.
و تفيد الإحصاءات الطبية أن نحو (10%) من حالات التهاب الرئة الاستنشاقى كانت بسبب الإدمان على الخمور.فعندما يشرب السكير حتى الثمالة يصبح أكثر عرضة للتقيؤ و من ثم استنشاق ذلك القىء و أخيراً وصوله إلى الرئتين.
فإذا كان القىء من العصارة الهضمية التي تحتوى على حامض الهيدروكلوريك فإن وصولها إلى الرئتين يتسبب فى ضعف شديد فى التنفس مع ضيق و اختناق و ربما الوفاة بالصدمة.
و بالرغم من الرعاية الطبية الفائقة لتلك الحالات إلا أن نسبة الوفيات تتراوح بين (30 ـ 6%).

كما يمكن أن يغص السكير بلقمة أو بأى جسم غريب.الأمر الذى يؤدى إلى انسداد الحنجرة إذا كانت اللقمة كبيرة فيصاب السكير بالاختناق ويزرق بدنه وقد تكون نهايته.

ب ـ **الالتهابات الرئوية البكتيرية (Bacterial pneumonia):-**

تنتشر الالتهابات الرئوية البكتيرية عند المدمنين على الخمور نتيجة للأسباب التالية:

1ـ تأثر عملية تطهير الرئتين من الأجسام الغريبة ـ كما سبق و أن شرحنا.

2ـ ضعف المناعة عند المدمن فى مقاومة الأمراض.

3ـ تأثر الفم بالكحول و خصوصاً اللثة و الأسنان مما يؤدى إلى تكاثر الجراثيم التى تجد مرتعاً خصباً لها على الأسنان المتعفنة و المتسوسة مما يهىء الفرصة لوصول تلك الجراثيم إلى الرئتين وإصابتهما بالالتهابات المتكررة.

4 ـ سوء التغذية المصاحب للإدمان على الخمور.

و تفيد المصادر الطبية أن نسبة حدوث الوفيات بسبب الالتهابات الرئوية البكتيرية عند المدمنين تفوق ثلاثة أضعاف النسبة عند غيرهم من غير المدمنين.

ج ـ **خراج الرئة (Lung abscess):-**

تتكون خراجات الرئة كنتيجة لمضاعفات الالتهابات الرئوية و توسع القصبات الهوائية عند مدمنى الخمور و ذلك نتيجة لما يحدث من تهتك و تآكل لأنسجة الرئتين.

و تفيد الإحصاءات الطبية أن الكحول هو المسؤول الأول عن تكون هذه الخراجات عند نحو (30 ـ 70%) من مجموع الحالات.

أما أسباب تكونها فهي نفس الأسباب التي سبق ذكرها عند الحديث عن الالتهابات الرئوية.

أما الأعراض التى تظهر فتتمثل فى ارتفاع درجة الحرارة مع قشعريرة و زيادة فى التعرق و ألم فى الصدر و سعال جاف قد يصاحبه بلغم قيحى و لابد من العلاج بشكل مكثف.

و من مضاعفات المرض انتشار هذه الالتهابات إلى الرئة غير المصابة بالإضافة إلى التهاب غشاء الجنب و ربما التهاب غشاء التامور المحيط بالقلب و الذى قد يؤدى إلى الوفاة إذا لم يعالج المريض.

و قد ينتقل القيح طريق الدم ليصل إلى أماكن عدة مثل الدماغ والكلية والكبد فتتكون خراجات في تلك الأعضاء.

د ـ **مرض الدرن (السل Tuberculosis):-**

تعتبر الصداقة وطيدة وقديمة بين مرض السل والإدمان على الكحول.

ويرجع سبب ذلك إلى سوء التغذية و انخفاض القدرة المناعية عند المدمنين.

لذا فإن هناك مقولة طبية شائعة بين الأطباء مفادها أنك إذا وجدت مرضاً فى الرئة عند مدمن الخمر ففكر أولاً بمرض السل.

و فى عدة دراسات أجريت فى العديد من بلدان العالم و منها:-الولايات المتحدة و كندا و بريطانيا والدنمارك واستراليا و يوغسلافيا (سابقاً) ثبت بالدليل القاطع ارتفاع نسبة الإصابة بمرض السل لدى متعاطى الخمور فقد وجد من بين تلك الدراسات التي أجريت في الولايات المتحدة أن (22.2) حالة من بين كل ألف مدمن يعانون من السل الرئوى مقارنة مع (0.4) حالة من بين كل ألف من الأشخاص العاديين.

أما في كندا فقد أثبتت الدراسة التي قام بها الباحث (أولين وزملاؤه) على بعض المساجين أن نسبة انتشار مرض السل في أوساط المساجين من المدمنين تفوق (16) مرة نسبة انتشاره عند نفس العدد من المساجين من غير المدمنين على الكحول.

كما يتعرض المدمنون وخصوصاً أولئك المصابين بتليف الكبد للإصابة بالتهاب الصفاق الدرنى(T.B.peritonitis) حيث يشعر المريض بانتفاخ و ألم فى بطنه مع ارتفاع فى حرارة جسمه.
ومن بين المشكلات التى تواجه الأطباء فى علاج مرضى السل المدمنين على الكحول ما يلى:-
1 ـ عدم التزام المدمن بالسير على خطة العلاج.
2 ـ إذا أدخل المدمن إلى المستشفى فإنه لا يلتزم بقوانين المستشفى ولا بالنصائح الطبية بل نجده يحاول الخروج من المستشفى دون موافقة الطبيب.
3 ـ عند خروجه من المستشفى لا يلتزم المدمن بالاستمرار على العلاج و الجدير بالذكر أن علاج مرض السل يتطلب فترة طويلة (6 ـ 9 أشهر) يتناول خلالها كمية كبيرة من الأدوية يومياً.
4 ـ يفقد الطبيب متابعة سير المرض عند المدمنين وذلك لعدم زيارتهم للطبيب بشكل دورى.
ونتيجة لعدم الاستمرار على العلاج وعدم أخذ المدمن للجرعة الكافية من العلاج فإن البكتيريا المسببة لهذا المرض تصبح لديها مناعة ضد هذه الأدوية ومن ثم يصعب القضاء عليها مما يؤدي إلى انتشار المرض لذا فإن معظم الأوساط الطبية تكاد تجمع على دور مدمني الخمر في نشر داء السل في المجتمع.
والمعلوم طبياً أن هذا المرض يمكن أن يصيب معظم أجزاء الجسم إذا انتشر الميكروب عن طريق الدم.
وليس هذا فحسب بل إن الكحول يزيد من الآثار الجانبية الناتجة عن بعض الأدوية المستخدمة في مكافحة السل. وخير مثال على ذلك ما يحدثه الكحول من زيادة في إصابة الكبد بالالتهاب مع استخدام عقار الأيزونايزايد (Isoniazide) حيث ارتفعت نسبة الإصابة عند المدمنين بمعدل أربعة أضعاف مقارنة بغيرها من غير المدمنين وهذا السبب دفع بعض الأطباء إلى عدم استخدام هذا العقار كعلاج وقائى عند المدمنين.
هـ ـ توقف التنفس أثناء النوم (Sleep apnea):-
أثبتت بعض الدراسات الطبية أن ارتفاع نسبة توقف التنفس أثناء النوم يمكن أن تحدث نتيجة احتساء كمية كبيرة من الكحول قبل النوم.ويعود السبب في ذلك إلى تأثير الكحول التثبيطى على الجهاز العصبى.
و ـ المضاعفات الرئوية التي تحدث نتيجة تليف الكبد الكحولى:-
1ـ نقص الأكسجين فى الدم (Hypoxemia):-
ويعتبر من أهم المضاعفات التى تنتج عن تليف الكبد الناتج عن الإدمان على تعاطي الخمور ومن أسباب حدوث نقص الأكسجين ما يلى:-
أ ـ استسقاء البطن (الحبن) (Ascites) حيث تنتفخ البطن بشكل كبير فيصبح التنفس عسيراً على المريض مما يؤدي إلى تضيق المجارى التنفسية فتقل بذلك كمية الأكسجين الواصلة إلى الدم.
ب ـ الارتشاح البلورى (Pleural effusion). حيث تتجمع السوائل حول الرئتين مما يعيق عملية تبادل الغازات بين الحويصلات الهوائية (الأسناخ) والأوعية الدموية الرئوية.
ج ـ تكون تحويلات دموية (Vascular shunts) فى داخل الرئتين مما يجعل الدم يتحاشى المرور (bypass) فى الأوعية الدموية الرئوية التى جعلها الله تعالى محيطة بكل حويصلة هوائية حتى يتم تبادل الغازات بينهما فى نظام بديع محكم قال تعالى:-(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) (النمل: 88)
فإذا حيل بين عملية التبادل هذه فإن تشبع الدم بالأكسجين يقل مما ينتج عنه نقص الأكسجين لدى جميع خلايا الجسم.
2ـ القلوية التنفسية (Respiratory Alkalosis):-

وتحدث غالباً نتيجة إصابة المدمن بنوبات من التنفس السريع (Hyper ventilation) مما ينتج عن ذلك طرد كمية كبيرة من غاز ثانى أكسيد الكربون والذى يلعب دوراً مهماً فى تعادل قلوية الدم.
وتكون نتيجة ذلك نقص الصوديوم والكالسيوم و الماغنسيوم الأمر الذى يؤدى إلى إصابة المريض بالتشنج والتكزز.
وقد لوحظ حدوث هذه الحالة لدى مدمنى الخمور عند توقفهم المفاجئ عن تعاطى الخمور بعشر ساعات
3 ـ التهاب الحويصلات الهوائية التليفى: (Fibrosing alveolitis):-
4 ـ ارتفاع ضغط الدم فى الدورة الدموية الرئوية: (Pulmonary hypertension):-
ز ـ المضاعفات الرئوية التى تحدث نتيجة التهاب البنكرياس:
يتسبب التهاب البنكرياس الناتج عن تعاطى الخمور فى إصابة (9 ـ 13%) من مدمنى الخمور بوذمة الرئتين الحادة (Acute pulmonary edema)و التى تعرف بمتلازمة إعاقة التنفس عند الكبار (ARDS)
و التى قد تؤدى إلى هبوط و فشل فى عملية التنفس و تكون الوفاة قاب قوسين أو أدنى من المريض ـ بإذن الله.و يعود سبب ذلك إلى تأثير أنزيمات البنكرياس التى تحررت فى الدم نتيجة لالتهاب البنكرياس
و التى تقوم بتدمير كل نسيج يقف في طريقها و من ضمنها أنسجة الرئتين.
الرابط
وعمل الكحول أنه يؤدي إلى انقباض الأوعية الدموية في المخ ومن ثم ينخفض تدفق الدم فيه عن الحد الضروري مما يؤدي إلى حرمان بعض خلايا المخ العصبية من الأوكسجين الذي يتيح لها أن تقوم بوظيفتها بشكل مناسب ويتبين من خلال تجارب العالم "التورا" وزوجته على الفئران أن الأوعية الدموية التي تغذي المخ تكون ذات حساسية عالية جداً بالنسبة للكحول بينما بقية الأوعية الدموية في بقية أعضاء الجسم تتأثر بشكل أقل.
وأما بالنسبة للسكتة الدماغية فإن تناول الخمور من أهم أسبابها وسبب ذلك أن للكحول دوراً فى الإصابة بارتفاع ضغط الدم الذى يعتبر عاملاً من العوامل المؤدية للإصابة بالسكتة الدماغية.
كما أن له تأثيراً فى خاصية التخثر فى الدم عن طريق زيادة عدد الصفائح الدموية وسرعة التصاقها مما يؤدي إلى تكون الجلطة الدموية و تأثيره كذلك على عمل القلب باضطرابات نبضه ودوره فى رفع نسبة دهنيات الدم كل ذلك عوامل مساعدة على السكتة الدماغية.
وأما المخيخ فهو المسؤول عن توزان الجسم ومن المعلوم أن شارب الخمر يفقد توزانه ويظهر الخلل على بعض أعضائه وسبب ذلك أن للخمر دوراً في ضمور خلايا المخ وتفيد الإحصاءات أن 27% من المدخنين مصابون بضمور خلايا المخيخ. كما يؤدي الخمر إلى التهاب أغلفة المخ الثلاثة وينتج عنه أمراض خطيرة إن لم يتسبب فى الوفاة.
أما الجهاز الهضمى الممتد من الفم إلى فتحة الشرج مروراً بالبلعوم والمرىء والمعدة والبنكرياس والكبد والأمعاء وغيرها فإن للكحول تأثيراً على كل هذه الأعضاء.
أما الفم فمع الرائحة العفنة يؤدى الخمر إلى تسوس عنق الأسنان والقرح القلاعية المتكررة وطحن الأسنان ومن ثم تآكلها والتهاب الغدد اللعابية
وأما المرىء فتؤثر الخمر عليه من جهة تأثيرها على الصمام العلوي والصمام السفلى والحركة الدورية وتؤدى إلى التهاب المرىء الارتدادى ونتيجة لذلك يشعر المدمن بالغثيان والقىء نتيجة تأثير الخمر على المواد المخاطية وإفرازات المعدة.

وأما المعدة فيؤثر فيها الكحول بارتفاع نسبة نزيف الجزء العلوى من الجهاز الهضمى حيث يتمزق الغشاء المخاطي المبطن لمنطقة ما تحت الفؤاد وهى المنطقة الفاصلة ما بين المرء و المعدة
وذلك نتيجة التقيؤ الشديد و المستمر الذى يصيب المدمن والذي غالباً ما يصاحب بتهوع عنيف وينتج عن ذلك أن يتقيأ دماً بشكل غزير ومستمر وقد يفقد حياته.
كما يؤدي الخمر إلى التهاب المعدة الحاد والمزمن ويؤثر على إفرازات المعدة وعلى الغشاء المبطن لجدار المعدة ويؤدي تكرار تناول هذه المقادير الكبيرة إلى التهاب صخورى مزمن وخيم في المعدة يتجلى بنقص الشهية يمتد بعد ذلك إلى الأمعاء وجهازها الغددى فيسبب إمساكاً كما قد يؤدى إلى سرطان المعدة.
كما يؤثر الكحول على الأمعاء الدقيقة كما ذكر ذلك البروفيسور "إيفان بك" في بحثه المقدم عام 1991م في هولندا أن الكحول يتسبب في تغيرات مختلفة للأمعاء منها تغيرات في الشكل المظهري والأوعية الدموية الموجودة تحت جدار الأمعاء بالإضافة إلى تأثير عملية الامتصاص مما يؤدي إلى سوء التغذية.
وأما تأثير الكحول على الأمعاء الغليظة فإن المدمنين يصابون بما يعرف بالقولون المتهيج حيث يعانى المريض من اضطراب فى التبرز حيث يعاني أحياناً من الإسهال وأحياناً من الإمساك مع وجع فى البطن ولا علاج لذلك إلا ترك شرب الكحول.
ويؤثر الكحول على البنكرياس بالالتهاب الحاد بنوعيه النخرى والتورمى نتيجة التأثير السمى المباشر للكحول.والأهم من ذلك التسبب فى تنشيط إنزيمات البنكرياس فتؤد فى إلى تحطيم خلايا البنكرياس "التحطيم الذاتى".
وأما تأثيره على الكبد فمن أخطر التأثيرات إذ أن الكبد من أفضل الأجهزة بالنسبة للجسم فهو الذي يحفظ نسبة توازن السكر في الدم و تكون فيه عملية استقلاب البروتينات والدهون وهو الذي يفرز العصارة الصفراوية لهضم الدهون ويمتص السموم ويحطمها ولكن الكحول يشل عمل الكبد ويصبح غير قادر عن الدفاع عن الجسم وله تأثيرات كثيرة على أعمال الكبد المذكورة كما أنه يتسبب فى عدة أمراض للكبد كتسحمه والتهابه وتليفه وإصابته بالسرطان وتراكم الحديد فى أنسجته وغيرها.
حيث تؤكد الدراسات الطبية أن معظم الذين يتعاطون الخمور مهما قلت كميتها فإنهم يصابون بتراكم الدهون في أكبادهم مما يؤدي إلى تضخمها ثم يؤدي الأمر إلى التهاب الكبد وقد يتطور الأمر إلى تليف الكبد حيث أثبتت الإحصاءات الطبية أن 10-30% من المدمنين على تعاطى الكحول معرضين للإصابة بتليف الكبد... و وجد أن نحو 15-30% من المرضى الذين أصيبوا بتليف الكبد نتيجة إدمانهم للكحول أصيبوا بسرطان الكبد ووجد أن المدمنين على تعاطي الخمور هم أكثر الناس عرضة للإصابة بفيروس التهاب الكبد البائى و الذى يمكن أن يكون سبباً للإصابة بسرطان الكبد لاحقاً.
أما تسرب الحديد فى الكبد فيتسبب فى تضخم الكبد و فقدانه لوظائفه الحيوية و تشير الإحصاءات إلى أن هذا المرض يوجد عند أكثر من 70% من المدمنين على تعاطي الخمور.
كما يؤثر الكحول على القلب والأوعية الدموية حيث يؤثر الكحول على استقلاب الدهون والمعادن والبروتينات في القلب ويؤثر على قدرة القلب على الانقباض..
حيث تثبط الخمرة عمل عضلة القلب فيقل ضخ الدم من القلب كما تزيد من سرعة دقات القلب، وترفع الضغط الانقباضى مما يؤدى إلى حدوث توسع فى الأوعية الدموية والجلدية وهذه الأوعية تتأثر بالكحول حيث يسبب لها التوسع ويحس المدمن بالدفء لكن هذا الدفء وقتى حيث يستفرغ حرارة الجسم ثم يؤدى إلى انخفاض شديد فى حرارة الجسم يؤثر عليه خاصة فى المناطق الباردة.

ويصل طول الأوعية الدموية إلى (100.000/ كيلومتر يتم بواسطتها إيصال الغذاء والأكسجين إلى كل أنحاء الجسم وحيث إن الخمر يؤدى إلى دهنية الدم فإن هذه الأوعية تصاب بالتصلب والضيق نتيجة تراكم الدهن عليها.

وأكدت الأبحاث تأثير الخمر على الجنين حيث تحدث له تشوهات خلقية وهو فى رحم أمه كتوقف نمو الدماغ وصغر حجمه مما يؤثر على ذكاء الجنين أو يسبب تأخراً فى جسمه بصفة عامة.

كما يؤثر على الغدد القنوية والصماء والمختلطة وعلى الجهاز البولى والتناسلى والحمل والجهاز الحركى والجلد وكثير من أجهزة الجسم

اضرار الميسر الدنيوية:-

الميسر فى العصر الحديث:

و في عصرنا الحديث تنوعت آلات الميسر و تعددت صنوفها حتى فاقت الحصر أو كاد و قد تفاقم الأمر مع تطور وسائل الإعلام و الاتصال فخاطر الناس و تغالبوا فى المباراات الرياضية بين الفرق و عبر الشبكة العالمية (الإنترنت) و رسائل الجوال القصيرة و المسابقات فى القنوات التلفزيونية و الإذاعية و ربما سموها ألعابا أو جوائز أو غيرها من الأسماء اللامعة و هى لا تغير من حقيقتها شيئا.

فكل ذلك من الميسر و القمار المحرم شرعاً إذ توفرت فيها كل أركان الميسر.

أركان الميسر:

1ـ لاعبين:-

هما المشارك أو المشاركون فى اللعبة أو المسابقة من جهة و المنظم للعبة أو المسابقة من جهة أخرى و قد يكون شخصا واحدا أو شركة.

2ـ و من آلة الميسر:-

و هي المسابقة أو اللعبة مثل مباراة رياضية بين فريقين أو سباق بين خيول أو مصارعة بين رجلين أو إرسال رسالة قصيرة من الهاتف الجوال إلى الرقم الفلانى تتضمن كلمة معينة ثم تتم القرعة بين المرسلين فمن خرج سهمه كان هو الفائز.

3ـ و من المال:

الذى يياسر به الطرفان و هو ما يشتريه اللاعب من أوراق أو تكلفة المكالمة الهاتفية من جهة اللاعب المتصل أو تكلفة الرسالة القصيرة التي يرسلها و ما ينفقه الشخص أو الشركة المنظمة للعبة أو المسابقة من أموال يدفعها إلى شركات الاتصال أو وسائل الإعلام.

4ـ و نتيجة اللعبة:

التي لا بد أن تكون خسارة أو ربحا كنتيجة كل أنواع الميسر القديمة و الحديثة و مما يميز الميسر في عصرنا الحديث أن الخاسر دائما هو جهة واحدة و هي الأضعف و هو من يجمع دراهمه و دنانيره من الفقراء و المساكين و من أصحاب الدخل المتوسط و يُخْدعون بتخصيص نزر يسير مما جمع من أموالهم ليدفع إلى واحد أو إثنين منهم فيصدقون بعقولهم العفنة أن ذلك فائز !!!

أما الشخص المنظم للعبة أو المسابقة فلن يخسر شيئا بحال من الأحوال إلا ما يخسره من دينه و ذلك شر الخسائر قال تعالى { قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين}.

مفاسد الميسر الدنيوية:

كما أن للميسر مفاسد تتعلق بدين المرء و تعرضه لغضب الله و عذابه يوم القيامة

فكذلك فإن له مفاسد تتعلق بالحياة الدنيا فتعكرها و تنغص صفوها وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض تلك المفاسد كما أن بعضها مشاهدة وملموسة من واقع الحياة اليومية للمشتغلين بالميسر
و هذه بعض تلك المفاسد الدنيوية:
1- إن الميسر يسبب العداوة والبغضاء بين الناس:-
يعد التآلف و التحابب بين أفراد المجتمع الواحد من عوامل قوة ذلك المجتمع و أسباب تقدمه و نموه لأنهم يكونون كالجسد الواحد كما وصف رسول الله ﷺالمجتمع الإسلامي الملتزم بتعاليم الكتاب والسنة (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[مسلم]
و وجه ذلك - والله أعلم - أن الميسر لا يخلوا من ربح أو خسارة و كلاهما حاصل على نحو باطل لا يقره دين و لا عقل و ليس كربح التجارة أو خسارتها لأن التاجر المسلم أو العاقل يعترف بقضاء الله و قدره و يسلم بنهاية الصفقات حسب المقدمات الصحيحة التي تمليها طبيعة العرض و الطلب
أما المقامر فيسعى وراء خيال و سراب و يركض خلف حظ موهوم حتى إذا جاءه لم يجده شيئا فيعض على أنامل الحسرة و يلتفت فإذا حوله مياسروه يسخرون بملء أفواههم لما ربحوه من أموال الناس بالباطل فهل بعد ذلك يتصور بين الفريقين مودة أو رحمة لا و هيهات !!
2- إن الميسر من عوامل انتشار البطالة.
الواجب على الحكومات و الدول الناصحة لرعاياها أن توفر لها فرصا حقيقية للعمل و التكسب و ذلك بإقامة مصانع كافية تستوعب السواعد القوية من المواطنين و الكفاءات العالية من الباحثين و العلماء و إيجاد مزارع واسعة تكفى الفلاحين و المزارعين و تيسير تجارة رائجة يصفق بها الأغنياء في الأسواق فتتحقق الكفاية لعامة الشعب و تقل البطالة و تقضى على الجريمة و يعم الأمن فى ربوع البلاد.
قال الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله :-(و المقصد الشرعي فى الأموال كلها خمسة أمور: - رواجها و وضوحها و حفظها و ثباتها و العدل فيها)فالرواج دوران المال بين أيدى أكثر من يمكن من الناس بوجه حق قال تعالى { وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله}[المزمل20]
وقال النبى ﷺ-:(ما مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)[البخارى] و قال{إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها}[البقرة:122])
و لا شك أن الميسر لا تمت إلى واحد من هذه المقاصد بصلة بل إن شيوعه فى المجتمع يعطل الصناعات و يخسر التجارات و تهلك المزارع كيف لا و الشياطين تعد السذج من الناس بالغنى الفاحش و الثراء الطاغى بمجرد مشاركة في لعبة الميسر
3- إن الميسر يساهم فى تفشى الجريمة:-
إن صالات القمار أو قل إن مجتمعات القمار لا تخلوا في أغلب الأحيان من جرائم السرقة والقتل و من الشرب و الخلاعة و الميوعة قال بن سيرين في تعريف الميسر
(كل لعب فيه قمار من شرب أو صياح أو قيام فهو من الميسر)[الطبرى]أما السرقة فلأن المشاهد للعبة الخمار و كيف يخسر هذا بسرعة و كيف يربح ذلك في طرفة عين تستهويه العملية فيود المشاركة فيها بأي طريق ممكن و غالبا ما يلجأ إلى السرقة لإشباع تلك الرغبة العارمة و اعتبر ذلك في الأولاد الذين يتقامرون بالجوز و الكلل وغيرها فإنهم يسرقون الأموال من آبائهم و أمهاتهم ليشترون بها تلك الأغراض التى يتقامرون بها مع زملائهم.

و أما القتل:-فلما يسوء بعضهم أن يذهب ماله هباء في دقيقة واحدة و ربما تعب و كد فى تحصيله فيشتاط غضبا فينتحر هو أو يقتل أصحابه ليسترد ما ذهب من ماله.
أما الشرب و الخلاعة و الميوعة:-فهو نصيب الفائز الخاسر من المقامرين لإن الله تعالى يمحق الربا و يربى الصدقات فالمال الحلال يسهل إنفاقه في الوجه الحلال بل الواجب و المندوب
و أما المال الحرام فيستهلكه صاحبه فيما يضره من شهوتى الفرج و البطن
و لهذا فإن صالات القمار فى أغلب الأحيان أوكار للرذيلة و المخدرات.
4- فى الميسر أكل لأموال الناس بالباطل:-
و من مقصود الشارع فى الأموال أيضا كما يقول بن عاشور رحمه الله:-
(الوضوح و الحفظ و العدل و الإثبات)و يستمر-رحمه الله- فى شرح تلك المقاصد قائلا:-
(و أما وضوح الأموال فذلك إبعادها عن الضرر و التعرض للخصومات بقدر الإمكان و لذلك شرع الإشهاد و الرهن فى التداين و أما حفظ المال فأصله قول الله{ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل} النساء 29
و قال النبى ﷺ (لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس)[سنن الدارقطنى]
أما إثباتها فهو تقريرها لأصحابها بوجه لا خطر فيها و لا منازعة أما العدل فيها فذلك بأن يكون حصولها بوجه غير ظالم و ذلك إما أن تحصل بعمل مكتسبها و إما بعوض من مالكها أو بتبرع و إما بإرث و من مراعاة العدل حفظ المصالح العامة و دفع الأضرار)[مقاصد الشريعة الإسلامية].
و مال الميسر كسب رخيص يكتنفه الغموض من كل جانب و لا يعرف الرابح من أين جاءه الربح و لا يدري الخاسر من أين أتاه الخسران و لا يمكن تقريره بوجه لا منازعة فيها
و لذلك يدلون إلى الحكام ليأكلوا فريقا من أموال الناس بالباطل
أما مقصد العدل فهو أبعد المقاصد عن الميسر فالميسر هو الظلم بعينه إذ بواسطته يأكل الناس بعضهم أموال بعض بغير وجه حق و مهما قال لك المقامر فى حرية ممارسته لهذه العادة السيئة فإنه لا يطيب نفسا بما يخسر من مال.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ
وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾
مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ
تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾
مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ
وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

*و لما كان الصيد يشمل الصيد البرى و البحرى استثنى تعالى الصيد البحرى فقال:-

(أُحِلَّ لَكُمْ)فى حال إحرامكم-(صَيْدُ ٱلْبَحْرِ)و هو الحى من حيواناته

(وَطَعَامُهُۥ)و هو الميت منها فدل ذلك على حل ميتة البحر.

الفائدة فى إباحته لكم أنه(مَتَٰعًا لَّكُمْ)لأجل انتفاعكم

(وَلِلسَّيَّارَةِ)و انتفاع رفقتكم الذين يسيرون معكم-جمع سيّار للمسافرين و النائين عن البحر

*مسلم (1935) عَنْ جَابِرٍ قَالَ:- بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَ أَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ نَتَلَقَّى عِيرًا(الإبل التى تحمل الطعام وغيره)لِقُرَيْشٍ وَ زَوَّدَنَا جِرَابًا(وعاء من جلد)مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً قَالَ: فَقُلْتُ:- كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ قَالَ: نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ وَ كُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ(ورق السلم)ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ قَالَ:-وَ انْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَرُفِعَ لَنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الْكَثِيبِ(الرمل المستطيل المحدودب)الضَّخْمِ فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هِىَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرَ قَالَ:-
قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَيْتَةٌ ثُمَّ قَالَ: لَا بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَ قَدِ اضْطُرِرْتُمْ فَكُلُوا قَالَ:
فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا وَ نَحْنُ ثَلَاثُ مِائَةٍ حَتَّى سَمِنَّا قَالَ:
وَ لَقَدْ رَأَيْتُنَا نَغْتَرِفُ مِنْ وَقْبِ عَيْنِهِ(داخل عينه ونقرتها)بِالْقِلَالِ(جمع قلة وهي الجرة الكبيرة التي يقلها الرجل بين يديه أي يحملها)الدُّهْنَ وَ نَقْتَطِعُ مِنْهُ الْفِدَرَ(القطع)كَالثَّوْرِ أَوْ كَقَدْرِ(مثل)الثَّوْرِ فَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَأَقْعَدَهُمْ فِى وَقْبِ عَيْنِهِ وَ أَخَذَ ضِلَعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَأَقَامَهَا ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا وَ تَزَوَّدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَائِقَ(هو اللحم يؤخذ فيغلى إغلاء ولا ينضج ويحمل في الأسفار يقال وشقت اللحم فاتشق والوشيقة الواحدة منه والجمع وشائق ووشق وقيل الوشيقة القديد)

فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ:-

«هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللهُ لَكُمْ فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعِمُونَا؟»قَالَ: فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺمِنْهُ فَأَكَلَهُ

*أبي داود83 عن أَبَي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺفَقَالَ:-

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ وَ نَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»

(وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ)

و يؤخذ من لفظ « الصيد » أنه لا بد أن يكون:-

1-وحشيا لأن الإنسى ليس بصيد

2-و مأكولا فإن غير المأكول لا يصاد و لا يطلق عليه اسم الصيد

(وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ)بفعل ما أمر به و ترك ما نهى عنه و استعينوا على تقواه بعلمكم أنه هو(ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ)

فيجازيكم هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل أم لم تقوموا بها فيعاقبكم؟﴿٩٦﴾

يخبر تعالى أنه(جَعَلَ)صير(ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا)قِواما(لِّلنَّاسِ)الذين لا قوام لهم من رئيس يحجز قويهم عن ضعيفهم و مسيئهم عن محسنهم و ظالمهم عن مظلومهم فحجز بكل واحد من ذلك بعضهم عن بعض إذ لم يكن لهم قيام غيره و جعلها معالم لدينهم و مصالح أمورهم

(قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ)ينتفعون بهما و يثابون عليهما.

(وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ)حرَّم العدوان و القتال فى الأشهر الحرم و هى (ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم و رجب) فلا يعتدى فيها أحد على أحد

(وَٱلۡهَدۡيَ)و حرَّم تعالى الاعتداء على ما يُهدَى إلى الحرم من بهيمة الأنعام

(وَٱلۡقَلَٰٓئِدَ)و حرَّم كذلك الاعتداء على القلائد و هى ما قُلِّد إشعارًا بأنه بقصد به النسك

يقوم بالقيام بتعظيمه دينُهم و دنياهم فبذلك:-

1-يتم إسلامهم 2-و به تحط أوزارهم

3-و تحصل لهم-بقصده-العطايا الجزيلة و الإحسان الكثير و بسببه تنفق الأموال و تتقحم-من أجله-الأهوال

4-و يجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين فيتعارفون و يستعين بعضهم ببعض و يتشاورون على المصالح العامة و تنعقد بينهم الروابط فى مصالحهم الدينية و الدنيوية.

قال تعالى:-(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ

*و من أجل كون البيت قياما للناس قال من قال من العلماء:-إن حج بيت الله فرض كفاية فى كل سنة.

فلو ترك الناس حجه لأثم كل قادر بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم و قامت القيامة.

(ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ)

فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام لما يعلمه من مصالحكم الدينية و الدنيوية97

*ليكن العلمان موجودين فى قلوبكم على وجه الجزم و اليقين:-

1-(ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ)العاجل و الآجل على من عصاه

2-(وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)لمن تاب إليه و أطاعه.

فيثمر لكم هذا العلمُ الخوفَ من عقابه و الرجاءَ لمغفرته و ثوابه و تعملون على ما يقتضيه الخوف و الرجاء98

(مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ)و قد بلَّغ كما أُمِر و قام بوظيفته و ما سوى ذلك فليس له من الأمر شيء

(وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ)لأنا نعلم ما عمله العامل منكم فأظهره بجوارحه و نطق به لسانه

(وَمَا تَكۡتُمُونَ)تخفون فى أنفسكم من إيمان و كفر أو يقين و شك و نفاق فيجازيكم بما يعلمه تعالى منكم99

(قُل)للناس محذرا عن الشر و مرغبا فى الخير:-(لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ)

من كل شيء فلا يستوى الإيمان و الكفر و لا الطاعة و المعصية و لا أهل الجنة و أهل النار و لا الأعمال الخبيثة و الأعمال الطيبة و لا المال الحرام بالمال الحلال.

(وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ)فإنه لا ينفع صاحبه شيئا بل يضره فى دينه و دنياه.

فالقليل النافع خير من الكثير الحرام الضار

(فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ)تجنبوا الحرام و دعوه و اقتنعوا بالحلال و اكتفوا به

(يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ)يأهل العقول الوافية و الآراء الكاملة فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب.

و هم الذين يؤبه لهم و يرجى أن يكون فيهم خير.

ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التى هى موافقة الله في أمره و نهيه فمن اتقاه أفلح كل الفلاح

و من ترك تقواه حصل له الخسران و فاتته الأرباح فقال:-(لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠٠)

*ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التى إذا بينت لهم ساءتهم و أحزنتهم فقال:-

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ)تبين(لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ)يصبكم بها السوء لما فيها من مشقة عليكم

و ذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺعن:-

الرد على ضلالات أهل الجاهلية و ارشاد المؤمنين 101-105

1-آبائهم 2- و عن حالهم فى الجنة أو النار فهذا ربما أنه لو بين للسائل لم يكن له فيه خير

3- و كسؤالهم للأمور غير الواقعة.

4–و كالسؤال الذى يترتب عليه تشديدات فى الشرع ربما أحرجت الأمة

5–و كالسؤال عما لا يعنى فهذه الأسئلة و ما أشبهها هى المنهى عنها

*و أما السؤال الذى لا يترتب عليه شيء من ذلك فهذا مأمور به كما قال تعالى:–

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى 4621 عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ:-

خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ قَالَ:-

«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ(من عظمة الله تعالى وشدة عقابه لأهل المعاصى ومن أهوال يوم القيامة)لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَ لَبَكَيْتُمْ كَثِيراً»

قَالَ: فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وُجُوهَهُمْ لَهُمْ خَنِينٌ(خروج الصوت من الأنف مع البكاء)

فَقَالَ رَجُلٌ(قيل هو عبد الله بن حذافة ﷺ وقيل غيره):-

مَنْ أَبِي؟ قَالَ: فُلاَنٌ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ}[المائدة: 101]

*البخارى 4622 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-

كَانَ قَوْمٌ(أناس من المنافقين واليهود)يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتِهْزَاءً فَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَنْ أَبِي؟

وَ يَقُولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَاقَتُهُ:-أَيْنَ نَاقَتِى؟فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةَ:-

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ}[المائدة: 101]حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ كُلِّهَا

*وأخرج الطبرى عن أبي هريرة ﷺ بسند رجاله رجال الصحيح إلا محمد بن على شيخ ابن جرير وهو ثقة

قال:-خطبنا رسول الله ﷺ فقال:-"يا أيها الناس كتب الله عليكم الحج"

فقام محصن الأسدي فقال:-أفى كل عام يا رسول الله؟ فقال:-

أما أنى لو قلت نعم لوجبت و لو وجبت ثم تركتم لضللتم اسكتوا عنى ما سكت عنكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم

فأنزل الله تعالى:-{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ}إلى آخر الآية.

فهذه ثلاثة أسباب لأن الأول و هو عبد الله بن حذافة لم يسأل استهزاء لكن قال الحافظ فى الفتح:-

لا مانع أن يكون الجمع سبب نزولها والله أعلم.

و قال ص352:-و الحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل إما على سبيل الاستهزاء و الامتحان

و إما على سبيل التعنت عن الشىء الذى لو لم يسأل عنه لكان على الإباحة ا. هـ.

*البخارى7289 عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:-

«إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»

(وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا)و إذا وافق سؤالكم محله فسألتم عنها(حِينَ يُنَزَّلُ)عليكم(ٱلْقُرْءَانُ)

*فتسألون عن آية أشكلت أو حكم خفى وجهه عليكم فى وقت يمكن فيه نزول الوحى من السماء.

*وَ لَكِنْ إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَا مُجْمَلَةً فَسَأَلْتُمْ عَنْ بيانها حينئذ تبينت لكم لاحتياجكم إليها.

(تُبْدَ)تبين(لَكُمْ)و تظهر و إلا فاسكتوا عمّا سكت الله عنه.

(عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا)سكت معافيا لعباده منها فكل ما سكت الله عنه فهو مما أباحه و عفا عنه.

*البخارى 7288 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-

«دَعُونِي(اتركونى ولا تسألونى)مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ(كثرة أسئلتهم)وَ اخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»(قدر استطاعتكم بعد الإتيان بالقدر الواجب الذى لا بد منه. قال النووى رحمه الله تعالى فى شرح مسلم هذا من قواعد الإسلام و من جوامع الكلم التى أعطيها ﷺ ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام)

(وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

لم يزل بالمغفرة موصوفا وبالحلم والإحسان معروفا فتعرضوا لمغفرته و إحسانه و اطلبوه من رحمته و رضوانه101

لساني سر شقائي!

كنتُ امرأةً متدينةً؛ لكني كنتُ كثيرةَ الفضولِ والأسئلة، فالمهمُّ أن أسألَ، لا للمعرفةِ ثم العملِ ولكِنْ من بابِ الفضول، وكنت أتحدث عن الأشياء لمجرد الحديث فقط، وكثيرا ما كنتُ أمرُّ بلا تفكرٍ أو تدبُّرٍ على قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(١)، وعلى الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾(٢)، لا أدري أغفلة تلك أم هي حسن ظن بنفسي؛ عياذا بالله!

المائدة: ١٠١

وبعد زواجي كنتُ أسألَ عن أشياءَ، وأتحدثَ عن أمورٍ لا ينبغي ذكرها حتى مع الزوج، كنت أفعلُ ذلك - فقط - لأبين له أني قد سمعت عن حيل بعض النساء على أزواجهن، ولم أُدرك نفسي إلا بعد أن أدخلتُ الشكَّ في قلبِ زوجي من جهتي، وتطور الأمر حتى صار يتهمني ويحتج على صحة اتهاماته بما قلته له، وبما سألته عنه!

واستمر تطور الأمور حتى ضاق بي الحال من ازدياد معاملته السيئة لي، حتى خرجت من بيتي إلى بيت أهلي، وهناك وصلنا للطلاق.

بعد الطلاق كنت أتهمه بأنه مجرمٌ وظالمٌ إذ فعل بي ما فعل بلا ذنب سبق مني، لكن عندما مررتُ بتفسير الآياتِ السابقاتِ، واستشرتُ واحدة من أهل الخبرة في حل القضايا الأسرية، وسمعَتْ مني ما صنعتُ؛ أشارت إلى لساني وقالت: هذا هو سر شقائك!

و هذه المسائل التى نهيتم عنها(قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ)أى:جنسها و شبهها سؤال تعنت لا استرشاد.

فلما بينت لهم و جاءتهم (ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ)بِسَبَبِهَا أَىْ: بُيِّنَتْ لَهُمْ وَ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا لِأَنَّهُمْ:-

لَمْ يَسْأَلُوا عَلَى وَجْهِ الِاسْتِرْشَادِ وَ إِنَّمَا سَأَلُوا عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَ الْعِنَادِ.

*كما قال النبى ﷺفى الحديث الصحيح:-«ما نهيتكم عنه فاجتنبوه و ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم و اختلافهم على أنبيائهم102

*ذم الله المشركين الذين شرعوا فى الدين ما لم يأذن به الله و حرموا ما أحله الله فجعلوا بآرائهم الفاسدة شيئا من مواشيهم محرما على حسب اصطلاحاتهم التى عارضت ما أنزل الله فقال:–

(مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ)هى:ناقة يشقون أذنها ثم يحرمون ركوبها و يرونها محترمة.

*هِيَ النَّاقَةُ إِذَا نَتَجَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ نَظَرُوا إِلَى الْخَامِسِ فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ فَأَكَلَهُ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ. وَ إِنْ كَانَ أُنْثَى جَدَعُوا آذَانَهَا

4623البخارى- عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ قَالَ:-البَحِيرَةُ: الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ فَلاَ يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ

*تفسير ابن أبي حاتم 6885:-

الْبَحِيرَةُ:-فَهِيَ الَّتِي تَجْدَعُونَ آذَانَهَا فَلَا تَنْتَفِعُ امْرَأَتُهُ وَ لَا بَنَاتُهُ وَ لَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ بِصُوفِهَا وَ لَا أَوْبَارِهَا وَ لَا أَشْعَارِهَا وَ لَا أَلْبَانِهَا. فَإِذَا مَاتَتِ اشْتَرَكُوا فِيهَا

(وَلَا سَآئِبَةٍ)و هى:–ناقة أو بقرة أو شاة إذا بلغت شيئا اصطلحوا عليه سيبوها فلا تركب و لا يحمل عليها و لا تؤكل و بعضهم ينذر شيئا من ماله يجعله سائبة.

* السَّائِبَةُ:-يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شئ

* السَّائِبَةُ:-هِيَ مِنَ الْغَنَمِ نَحْوَ مَا فُسِّرَ مِنَ الْبَحِيرَةِ إِلَّا أَنَّهَا مَا وُلِدَتْ مِنْ وَلَدٍ كَانَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ سِتَّةِ أَوْلَادٍ كَانَ عَلَى هَيْئَتِهَا فَإِذَا وَلَدَتِ السَّابِعَ ذَكَرًا أَوْ ذَكَرَيْنِ ذَبَحُوهُ فَأَكَلَهُ رِجَالُهُمْ دُونَ نِسَائِهِمْ.

وَ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ:-

السَّائِبَةُ:-هِيَ النَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ عَشْرَ إِنَاثٍ مِنَ الْوَلَدِ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ سُيِّبت فَلَمْ تُرْكَبْ وَ لَمْ يُجَزّ وَبرُهَا وَ لَمْ يَحلِبْ لَبَنَهَا إِلَّا الضَّيْفُ.

* البخارى4623 - عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ قَالَ:-

وَ السَّائِبَةُ:-كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ لاَ يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ

قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»

فَعَمْرُو هَذَا هُوَ ابْنُ لُحَيِّ بْنِ قَمَعَةَ أَحَدُ رُؤَسَاءِ خُزَاعَةَ الَّذِينَ ولوا الْبَيْتَ بَعْدَ جرْهم. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فَأَدْخَلَ الْأَصْنَامَ إِلَى الْحِجَازِ وَ دَعَا الرَّعَاعَ مِنَ النَّاسِ إِلَى عِبَادَتِهَا وَ التَّقَرُّبِ بِهَا وَ شَرَعَ لَهُمْ هَذِهِ الشَّرَائِعَ الْجَاهِلِيَّةَ فِي الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ قَوْلِهِ {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا}[الْأَنْعَامِ: 136]

(وَلَا وَصِيلَةٍ)

*البخارى4623 - عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ قَالَ:-وَ الوَصِيلَةُ:-

النَّاقَةُ البِكْرُ تُبَكِّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الإِبِلِ ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بِأُنْثَى وَ كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِطَوَاغِيتِهِمْ

*هِيَ الشَّاةُ إِذَا نَتَجَتْ سَبْعَةَ أَبْطُنٍ نَظَرُوا إِلَى السَّابِعِ فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مَيِّتٌ اشْتَرَكَ فِيهِ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ وَ إِنْ كَانَ أُنْثَى اسْتَحْيَوْهَا وَ إِنْ كَانَ ذَكَرًا وَ أُنْثَى فِي بَطْنٍ اسْتَحْيَوْهُمَا

وَ قَالُوا: وَصَلَتْهُ أُخْتُهُ فَحَرَّمَتْهُ عَلَيْنَا.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: {وَلَا وَصِيلَةٍ} قَالَ: -

فَالْوَصِيلَةُ مِنَ الْإِبِلِ كَانَتِ النَّاقَةُ تَبْتَكِرُ بِأُنْثَى ثُمَّ تُثَنَّى بِأُنْثَى فَسَمَّوْهَا الْوَصِيلَةَ وَ يَقُولُونَ:-

وَصَلَتْ أُنْثَيَيْنِ لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ فَكَانُوا يَجْدَعُونَهَا لِطَوَاغِيتِهِمْ.

*تفسير ابن أبي حاتم 6885 عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ أَبِيهِ
قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي خُلْقَانٍ مِنَ الثِّيَابِ فَقَالَ لِي: «هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ؟»
قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «مِنْ أَيْنَ الْمَالُ؟»قَالَ: فَقُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ مِنَ الْإِبِلِ وَ الْغَنَمِ وَ الْخَيْلِ وَ الرَّقِيقِ.
قَالَ: «فَإِذَا أَتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ»ثُمَّ قَالَ: «تُنْتِجُ إِبِلُكَ وَافِيَةً آذَانُهَا؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ
قَالَ: «وَ هَلْ تُنْتَجُ الْإِبِلُ إِلَّا كَذَلِكَ؟» قَالَ: فَلَعَلَّكَ تَأْخُذُ مُوسَى فَتَقْطَعُ آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا
وَ تَقُولُ: هَذِهِ بَحِيرَةٌ وَ تَشُقُّ آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَ تَقُولُ هَذِهِ صُرُمٌ؟ فَقُلْتُ:-نَعَمْ
قَالَ:«فَلَا تَفْعَلْ إِنَّ كُلَّ مَا أَتَاكَ اللَّهُ لَكَ حِلٌّ»ثُمَّ قَالَ:-{مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ}
[المائدة: 103]

(وَلَا حَامٍ)

*البخارى 4623 - عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ قَالَ:-
وَ الحَامِ:-فَحْلُ الإِبِلِ يَضْرِبُ الضِّرَابَ المَعْدُودَ فَإِذَا قَضَى ضِرَابَهُ وَ دَعُوهُ لِلطَّوَاغِيتِ وَ أَعْفَوْهُ مِنَ الحَمْلِ فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَ سَمَّوْهُ الحَامِيَ "

أى:جمل يحمى ظهره عن الركوب و الحمل إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم فكل هذه مما جعلها المشركون محرمة بغير دليل و لا برهان.

*و إنما ذلك افتراء على الله و صادرة من جهلهم و عدم عقلهم و لهذا قال:–

(وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ)يختلقون(عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ)وَ جَعَلُوهُ شَرْعًا لَهُمْ وَ قُرْبَةً يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَيْهِ

(وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ)فلا نقل فيها و لا عقل و مع هذا فقد أعجبوا بآرائهم التى بنيت على الجهالة و الظلم.

فالله ما شَرَّعَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَ لَا هِيَ عِنْدَهُ قُرْبَةٌ وَ لَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلٍ لَهُمْ بَلْ هُوَ وَبَالٌ عَلَيْهِمْ 103

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ
أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ
لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ
أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾
فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾
ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا)فإذا دعوا(إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ)أعرضوا فلم يقبلوا

و (قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ)من الدين و لو كان غير سديد و لا دينًا ينجى من عذاب الله.

(أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)

و لو كان فى آبائهم كفاية و معرفة و دراية لهان الأمر. و لكن آباءهم لا يعقلون شيئا

أي: ليس عندهم من المعقول شيء و لا من العلم و الهدى شيء فتبا لمن قلد من لا علم عنده صحيح و لا عقل رجيح و ترك اتباع ما أنزل الله و اتباع رسله الذى يملأ القلوب علما و إيمانا و هدى و إيقانا104

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ)

*هذه الآية قد تفهم فهما خاطئا بترك الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الصواب:-لا تضركم ذنوب غيركم إن اهتديتم بالقيام بأمر الله بالأمر بالمعروف و من تركه و هو مستطيع فهو ضال و ليس بمهتد)

وَ لَيْسَ فِي الْآيَةِ مسْتَدلٌّ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِذَا كَانَ فِعْلُ ذَلِكَ مُمْكِنًا

أي: اجتهدوا في إصلاحها و كمالها و إلزامها سلوك الصراط المستقيم فإنكم إذا صلحتم لا يضركم من ضل عن الصراط المستقيم و لم يهتد إلى الدين القويم و إنما يضر نفسه.

و لا يدل هذا على أن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر لا يضر العبدَ تركُهما و إهمالُهما فإنه لا يتم هداه إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

نعم إذا كان عاجزا عن إنكار المنكر بيده و لسانه و أنكره بقلبه فإنه لا يضره ضلال غيره.

وَ قَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ:-مسند أحمد حديث رقم 1

قَامَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنهفَحَمِدَ اللَّهَ و أَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:-يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَؤونَ هَذِهِ الْآيَةَ

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}[المائدة: 105]

وَ إِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغيرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ»

(إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا)أى:مآلكم يوم القيامة و اجتماعكم بين يدى الله تعالى.

(فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ)من خير و شر105

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-البخارى 2780عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: -

خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ و عَدِيِّ بْنِ بَدَّاءٍ فَمَاتَ السَّهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا مُسْلِمٌ

فَلَمَّا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا(منقوشا فيه خطوط دقيقة طويلة كالخوص وهو ورق النخل)مِنْ ذَهَبٍ

«فَأَحْلَفَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»ثُمَّ وُجِدَ الجَامُ(كأسا)بِمَكَّةَ فَقَالُوا:-ابْتَعْنَاهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ(كانا نصرانيين عندما حدثت القصة المذكورة في الحديث وتميم أسلم بعد ذلكرضي الله عنه و أما عدى فلم يسلم)فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ(من أولياء السهمي والرجلان هما عمرو بن العاص والآخر قيل هو المطلب بن أبي وداعة رضي الله عنهما) فَحَلَفَا لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَ إِنَّ الجَامَ لِصَاحِبِهِمْ قَالَ: -

وَ فِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ}[المائدة: 106]

*يخبر تعالى خبرا متضمنا للأمر بإشهاد اثنين على الوصية إذا حضر الإنسان مقدماتُ الموت و علائمه.

فينبغى له أن يكتب وصيته و يشهد عليها اثنين ذوى عدل ممن تعتبر شهادتهما.

الإشهاد على الوصية عند الموت 106-108

(أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ)

من غير أهل دينكم من اليهود أو النصارى أو غيرهم وذلك عند الحاجة و الضرورة و عدم غيرهما من المسلمين

(إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ)سافرتم فيها

(فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ)فأشهدوهما ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما فى تلك الحال مقبول و يؤكد عليهما

(تَحۡبِسُونَهُمَا)بأن يحبسا (مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ)التى يعظمونها.

(فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ)أنهما صدقا و ما غيَّرا و لا بدلا هذا

(إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ)ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلا فيحلفان بالله-فى شهادتهما فإن صدقتموهما فلا حاجة إلى القسم بذلك.

و يقولان:–(لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ)أى:بأيماننا (ثَمَنٗا)بأن نكذب فيها لأجل عرض من الدنيا

(وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ)فلا نراعيه لأجل قربه منا –لا نحابيه

(وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ)بل نؤديها على ما سمعناها-أَضَافَهَا إِلَى اللَّهِ تَشْرِيفًا لَهَا وَ تَعْظِيمًا لِأَمْرِهَا.

(إِنَّآ إِذًا)أى:–إن كتمناها (لَّمِنَ ٱلْأَٰثِمِينَ)106

(فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا)أى:الشاهدين

(ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا)بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما و أنهما خانا

(فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا)فليقم رجلان

(مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ)من أولياء الميت و ليكونا من أقرب الأولياء إليه.

(فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا)أنهما كذبا و غيَّرا و خانا.

(وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)أى:إن ظلمنا و اعتدينا و شهدنا بغير الحق107

*قال الله فى بيان حكمة تلك الشهادة و تأكيدها و ردها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة:–

(ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ)أقرب

(أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ)حقيقتها خوفًا من عذاب الآخرة حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات

(أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ)لا تقبل(أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ)الكاذبة ثم ترد على أولياء الميت.

*يَكُونُ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا هُوَ :-

1-تَعْظِيمُ الْحَلِفِ بِاللَّهِ 2-وَ مُرَاعَاةُ جَانِبِهِ وَ إِجْلَالُهُ

3-وَ الْخَوْفُ مِنَ الْفَضِيحَةِ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا رُدَّتِ الْيَمِينُ عَلَى الْوَرَثَةِ فَيَحْلِفُونَ وَ يَسْتَحِقُّونَ مَا يَدْعُونَ

وَ لِهَذَا قَالَ:-{أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ}

(وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ)الخارجين عن طاعته و متابعة شريعته

أى: الذين وصْفُهم الفسق فلا يريدون الهدى و القصد إلى الصراط المستقيم108

و حاصل هذا أن الميت–إذا حضره الموت فى سفر و نحوه مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين–أنه ينبغى:–

أن يوصى شاهدين مسلمين عدلين.

فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين جاز أن يوصى إليهما و لكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما بعد الصلاة أنهما ما خانا و لا كذبا و لا غيرا و لا بدلا فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما.

فإن لم يصدقوهما و وجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين فإن شاء أولياء الميت فليقم منهم اثنان فيقسمان بالله:–لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين و أنهما خانا و كذبا فيستحقون منهما ما يدعون.

و هذه الآيات الكريمة نزلت فى قصة«تميم الدارى»و« عدى بن بداء»المشهورة حين أوصى لهما العدوى

و يستدل بالآيات الكريمات على عدة أحكام:–

1-أن الوصية مشروعة و أنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصى.

2-أنها معتبرة و لو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت و علاماته ما دام عقله ثابتا

3-أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.

4-أن شهادة الكافرين فى هذه الوصية و نحوها مقبولة لوجود الضرورة و هذا مذهب الإمام أحمد.

و زعم كثير من أهل العلم:-أن هذا الحكم منسوخ و هذه دعوى لا دليل عليها.

5-أنه ربما استفيد من تلميح الحكم و معناه:-أن شهادة الكفار-عند عدم غيرهم حتى في غير هذه المسألة- مقبولة كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

6-جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور.

7-جواز السفر للتجارة.

8-أن الشاهدين-إذا ارتيب منهما و لم تبد قرينة تدل على خيانتهما و أراد الأولياء-أن يؤكدوا عليهم اليمين و يحبسوهما من بعد الصلاة فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى.

9-أنه إذا لم تحصل تهمة و لا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما و تأكيد اليمين عليهما.

10-تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه و أنه يجب الاعتناء بها و القيام بها بالقسط.

11-أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الريبة منهما و تفريقهما لينظر عن شهادتهما.

12-أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين فى هذه المسألة-قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله:-أن أيماننا أصدق من أيمانهما و لقد خانا و كذبا.

ثم يدفع إليهما ما ادعياه فتكون القرينة-مع أيمانهما-قائمة مقام البينة

۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾
إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ
تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ
وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ
وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ
إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾
وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾
إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ
قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا
وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

(يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ)كقوله(فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ)الأعراف: ٦

*يخبر تعالى عن يوم القيامة و ما فيه من الأهوال العظام و أن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم:-

سؤال الرسل يوم القيامة عن اجابة قومهم لهم 109

(مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ)أى:ماذا أجابتكم به أممكم.

فـــــ(قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ)و إنما العلم لك يا ربنا فأنت أعلم منا.

*إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ.وَ لَا شَكَّ أَنَّهُ قَوْلٌ حَسَنٌ وَ هُوَ مِنْ بَابِ التَّأَدُّبِ مَعَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ أَيْ: - لَا عِلْمَ لَنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِكَ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ فَنَحْنُ وَ إِنْ كُنَّا قَدْ أَجَبْنَا وَ عَرَفْنَا مَنْ أَجَابَنَا وَ لَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ كُنَّا إِنَّمَا نَطَّلِعُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا عِلْمَ لَنَا بِبَاطِنِهِ وَ أَنْتَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ الْمُطَّلِعُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. فَعِلْمُنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِكَ كَلَا عِلْم

(أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ)أى:تعلم الأمور الغائبة و الحاضرة109

معجزات عيسى و قصة المائدة 110-115

(إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ)

اذكرها بقلبك و لسانك و قم بواجبها شكرا لربك حيث أنعم عليك نعما ما أنعم بها على غيرك.

(إِذۡ أَيَّدتُّكَ)قويتك(بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ)بالروح و الوحى الذى طهرك و زكاك و صار لك قوة على القيام بأمر الله و الدعوة إلى سبيله.

و قيل: إن المراد «بروح القدس» جبريل عليه السلام

و أن الله أعانه به و بملازمته له و تثبيته في المواطن المشقة.

1-حَيْثُ جعلتُكَ لَهَا بُرْهَانًا عَلَى بَرَاءَتِهَا مِمَّا نَسَبَهُ الظَّالِمُونَ الْجَاهِلُونَ إِلَيْهَا مِنَ الْفَاحِشَةِ

2-وَ جَعَلْتُكَ نَبِيًّا دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ فِي صِغَرِكَ وَ كِبَرِكَ فَأَنْطَقْتُكَ فِي الْمَهْدِ صَغِيراً فَشَهِدْتَ بِبَرَاءَةِ أَمِّكَ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ

3-وَ اعْتَرَفْتَ لِي بِالْعُبُودِيَّةِ

4-وَ أَخْبَرْتَ عَنْ رِسَالَتِي إِيَّاكَ وَ دَعْوَتَكَ إِلَى عِبَادَتِي

(تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ)سرير الطفل الرضيع.

(وَكَهۡلٗاۖ)من تجاوز سن الشباب أى ثلاثين سنة.

*تَدْعُو إِلَى اللَّهِ النَّاسَ فِي صِغَرِكَ وَ كِبَرِكَ.وَ ضِمْنُ "تُكَلِّمُ" تَدْعُو؛ لِأَنَّ كَلَامَهُ النَّاسَ فِي كُهُولَتِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ.

*المراد بالتكليم هنا غير التكليم المعهود الذى هو مجرد الكلام و إنما المراد بذلك التكليم الذى ينتفع به المتكلم و المخاطب و هو الدعوة إلى الله.

و لعيسى عليه السلام من ذلك ما لإخوانه من أولى العزم من المرسلين من التكليم فى حال الكهولة بالرسالة و الدعوة إلى الخير و النهى عن الشر و امتاز عنهم بأنه كلم الناس فى المهد فقال:-

(إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا* وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا

(وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ)

فالكتاب يشمل الكتب السابقة و خصوصا التوراة فإنه من أعلم أنبياء بنى إسرائيل – بعد موسى- بها و يشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه و الحكمة :-

هى معرفة أسرار الشرع و فوائده و حكمه و حسن الدعوة و التعليم و مراعاة ما ينبغى على الوجه الذي ينبغى

(وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ)طيرا مصورا لا روح فيه(بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ) بإذن الله

(وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ)الذى لا بصر له و لا عين

(وَٱلۡأَبۡرَصَ)مرض البُهاء(بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ)أى أحياء من قبورهم.

*فهذه آيات بيِّنَات و معجزات باهرات يعجز عنها الأطباء و غيرهم أيد الله بها عيسى و قوى بها دعوته

(وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم)لما جاءهم الحق مؤيدا(بِٱلۡبَيِّنَٰتِ)الموجبة للإيمان به

(فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ)و هموا بعيسى أن يقتلوه و سعوا فى ذلك

*فكفَّ الله أيديهم عنه و حفظه منهم و عصمه و رفعه الله الى السماء الدنيا

فهذه مِنَنٌ امتنَّ الله بها على عبده و رسوله عيسى ابن مريم و دعاه إلى شكرها و القيام بها فقام بها عليه السلام أتم القيام و صبر كما صبر إخوانه من أولى العزم(110)

و اذكر نعمتى عليك إذ يسرت لك أتباعا و أعوانا(وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ)ألهمت و أوزعت(إِلَى)قلوب(ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ)

(أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى)أو أوحيت إليهم على لسانك

*وَ هَذَا أَيْضًا مِنَ الِامْتِنَانِ عَلَيْهِ ﷺبِأَنْ جَعَلَ لَهُ أَصْحَابًا وَ أَنْصَارًا.

ثُمَّ قِيلَ: الْمُرَادُ بِهَذَا الْوَحْيِ وَحَىُ إِلْهَامٍ كَمَا قَالَ:-{وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ} [الْقَصَصِ:7]

وَ هَذَا وَحَىُ إِلْهَامٍ بِلَا خَوْفٍ وَ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ68 ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا} [النَّحْلِ]

وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ:-وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَيْهِمْ بِوَاسِطَتِكَ فَدَعَوْتَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ اسْتَجَابُوا لَكَ وَ انْقَادُوا وَ تَابَعُوكَ فَقَالُوا: {آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}

أى:أمرتهم بالوحى الذى جاءك من عند الله فأجابوا لذلك و انقادوا و(قَالُوٓاْ):-(ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ)111

فجمعوا بين :-

1-الإسلام الظاهر 2-و الانقياد بالأعمال الصالحة3-و الإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق و من ضعف الإيمان111

(إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ)الأنصار كما قال عيسى ابن مريم للحواريين(مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ)

(يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ)يطيع و يرضى(رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً)فيها طعام

(مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ)

و هذا ليس منهم عن شك في قدرة الله و استطاعته على ذلك. و إنما ذلك من باب العرض و الأدب منهم.

*و لما كان سؤال آيات الاقتراح منافيا للانقياد للحق و كان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك

وعظهم عيسى ﷺ(قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ)

فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على:-

1-ملازمة التقوى 2-و أن ينقاد لأمر الله 3-و لا يطلب من آيات الاقتراح التى لا يدرى ما يكون بعدها شيئا.

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى و إنما لهم مقاصد صالحة و لأجل الحاجة إلى ذلك112

فـــــ(قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا) و هذا دليل على أنهم محتاجون لها

(وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا)بالإيمان حين نرى الآيات العيانية فيكون الإيمان عين اليقين كما كان قبل ذلك علم اليقين.

كما سأل الخليل ﷺربه أن يريه كيف يحيي الموتى(قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَـٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)

فالعبد محتاج إلى زيادة العلم و اليقين و الإيمان كل وقت

و لهذا قال:(وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا)أى:-نعلم صدق ما جئت به أنه حق و صدق

(وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ)فتكون مصلحة لمن بعدنا نشهدها لك فتقوم الحجة ويحصل زيادة البرهان بذلك113

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ
وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا
لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ
إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ
تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ
أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ
وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾
قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

وَ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوا ذَلِكَ لِحَاجَتِهِمْ وَ فَقْرِهِمْ فَسَأَلُوا أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةٌ كُلَّ يَوْمٍ يَقْتَاتُونَ مِنْهَا وَ يَتَقَوَّوْنَ بِهَا عَلَى الْعِبَادَةِ.

*فلما سمع عيسى عليه السلام ذلك و علم مقصودهم أجابهم إلى طلبهم فى ذلك فقال:-

(اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ)المائدة فى وقت نزولها(لَنَا عِيدًا)و موسما يتذكر به هذه الآية العظيمة فتحفظ و لا تنسى على مرور الأوقات و تكرر السنين(لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا)

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين و مناسكهم مذكرا لآياته و منبها على سنن المرسلين و طرقهم القويمة و فضله و إحسانه عليهم.

(وَآيَةً مِّنكَ)دَلِيلًا تَنْصِبُهُ عَلَى قُدْرَتِكَ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَ عَلَى إِجَابَتِكَ دَعْوَتِي فَيُصَدِّقُونِي فِيمَا أُبَلِّغُهُ عَنْكَ

(وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)أى:اجعلها لنا رزقا فسأل عيسى عليه السلام نزولها

و أن تكون لهاتين المصلحتين:-

1-مصلحة الدين بأن تكون آية باقية 2-و مصلحة الدنيا و هى أن تكون رزقا114

(قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ)

لأنه شاهد الآية الباهرة و كفر عنادا و ظلما فاستحق العذاب الأليم و العقاب الشديد.

و اعلم أن الله تعالى:-

1–وعد أنه سينزلها

2–و توعدهم–إن كفروا–بهذا الوعيد

*و لم يذكر أنه أنزلها فيحتمل أنه :–

1–لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك و يدل على ذلك أنه لم يذكر فى الإنجيل الذى بأيدى النصارى و لا له وجود.

2–و يحتمل أنها نزلت كما وعد الله و الله لا يخلف الميعاد و يكون عدم ذكرها فى الأناجيل التى بأيديهم من الحظ الذى ذكروا به فنسوه. أو أنه لم يذكر فى الإنجيل أصلا

و إنما ذلك كان متوارثا بينهم ينقله الخلف عن السلف فاكتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل

و يدل على هذا المعنى قوله:(وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ) و الله أعلم بحقيقة الحال115

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ

محاورة بين الله و عيسى 116-118

و هذا توبيخ للنصارى الذين قالوا:–(إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ)فيقول الله هذا الكلام لعيسى.

فيتبرأ عيسى و يقول:–(سُبْحَانَكَ)عن هذا الكلام القبيح و عمّا لا يليق بك.

(مَا يَكُونُ)ينبغى(لِي)و لا يليق(أَنْ أَقُولَ)شيئا(مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)ليس من أوصافى و لا من حقوقى

فإنه ليس أحد من المخلوقين لا الملائكة المقربون و لا الأنبياء المرسلون و لا غيرهم له حق و لا استحقاق لمقام الإلهية و إنما الجميع عباد مُدَّبرون و خلق مُسَّخرون و فقراء عاجزون

(إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)فأنت أعلم بما صدر منى

و(إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)و هذا من كمال أدب المسيح عليه السلام في خطابه لربه فلم يقل عليه السلام:–

« لم أقل شيئا من ذلك »

و إنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافى منصبه الشريف و أن هذا من الأمور المحالة

و نزه ربه عن ذلك أتم تنزيه و رد العلم إلى عالم الغيب و الشهادة116

*ثم صرح بذكر ما أمر به بنى إسرائيل فقال:–

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ)فأنا عبد متبع لأمرك لا متجرئ على عظمتك

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)أى:ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده و إخلاص الدين له المتضمن للنهى عن اتخاذى و أمي إلهين من دون الله و بيان أنى عبد مربوب فكما أنه ربكم فهو ربى.

(وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ)أشهد على من قام بهذا الأمر ممن لم يقم به.

*كُنْتُ أَشْهَدُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حِينَ كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ﴾أي:المطلع على سرائرهم و ضمائرهم.

﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾

علما و سمعا و بصرا فعلمك قد أحاط بالمعلومات و سمعك بالمسموعات و بصرك بالمبصرات

فأنت الذي تجازى عبادك بما تعلمه فيهم من خير و شر.

*البخارى4625 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَقَالَ:-

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا» ثُمَّ قَالَ:{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[الأنبياء: 104]إِلَى آخِرِ الآيَةِ ثُمَّ قَالَ:أَلاَ وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلاَئِقِ يُكْسَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ أَ لاَو إِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي فَيُقَالُ:-

إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ:

{وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[المائدة: 117]

فَيُقَالُ:-إِنَّ هَؤُلاَءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ117

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ﴾و أنت أرحم بهم من أنفسهم و أعلم بأحوالهم فلولا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم أى من مات منهم على الشرك بأن تصليه نارك فأنت على ذلك قدير

*هَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ :-

1-رَدَّ الْمَشِيئَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ الَّذِى لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْأَلُونَ.

2-و يتضمن التَّبَرِّىَ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَ عَلَى رَسُولِهِ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ نِدًّا وَصَاحِبَةً وَ وَلَدًا تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًا كَبِيرًا وَ هَذِهِ الْآيَةُ لَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ وَ نَبَأٌ عَجِيبٌ وَ قَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ:-

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَامَ بِهَا لَيْلَةً حَتَّى الصَّبَاحِ يُرَدِّدُهَا.

*مسلم (202)عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ:-

تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ:-{رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} [إبراهيم: 36]

وَ قَالَ عِيسَى عليه السلام(قال القاضي عياض قال بعضهم قال هو اسم للقول لا فعل يقال قال قولا وقالا وقيلا كأنه قال وتلا قول عيسى)

{إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[المائدة: 118]

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَ قَالَ: «اللهُمَّ أُمَّتِى أُمَّتِى» وَ بَكَى فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:-

«يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام

فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺبِمَا قَالَ وَ هُوَ أَعْلَمُ فَقَالَ اللهُ:-

يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ:إِنَّا سَنُرْضِيكَ(هذا موافق لقول الله عز وجل ولسوف يعطيك ربك فترضى)فِي أُمَّتِكَ وَ لَا نَسُوءُكَ

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾

أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة و قدرة لا كمن يغفر و يعفو عن عجز و عدم قدرة.

-أى لمن مات على التوحيد فتدخله جنتك فإنه لذلك أهل فإنك أنت العزيز الغالب على أمره

فأجابه الرب تبارك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾

الحكيم الذى يضع كل شيء فى موضعه فلا ينعم من أشرك به و لا يعذب من أطاعه و وحده.

–حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

قَالَ اللَّهُ مبينا لحال عباده يوم القيامة و مَن الفائز منهم و مَن الهالك و مَن الشقى و مَن السعيد 118

اللَّهمَّ أُمَّتي أُمَّتي!

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾[1] الآيَة، وَقَوْلَه فِي عِيسَى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2] فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي! وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ – وَرَبُّكَ أَعْلَمُ – فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلا نَسُوءُكَ[3]. مسلم

إبراهيم: ٣٦

المائدة: ١١٨

جزاء الصادقين يوم القيامة و بعض دلائل قدرة الله 119-120

(قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ)الموحدين (صِدْقُهُمْ)توحيدهم

و الصادقون:–هم الذين استقامت أعمالهم و أقوالهم و نياتهم على الصراط المستقيم و الهدى القويم

فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر

و لهذا قال: (لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا)

و الكاذبون بضدهم سيجدون ضرر كذبهم و افترائهم و ثمرة أعمالهم الفاسدة.

(رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

***كقوله(وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)**(التوبة: ٧٢

كَمَا قَالَ تَعَالَى:{لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ}[الصَّافَّات:61]وَ كما قَالَ:{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}[الْمُطَفِّفِينَ: 26] 119

(لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ)

لأنه الخالق لهما و المدبر لذلك بحكمه القدرى و حكمه الشرعى و حكمه الجزائى

و لهذا قال(وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ)فلا يعجزه شيء بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته و مسخرة بأمره.

***هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ الْمَالِكُ لَهَا الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا الْقَادِرُ عَلَيْهَا فَالْجَمِيعُ ملكه وَ تَحْتَ قَهْرِهِ وَ قُدْرَتِهِ وَ فِي مَشِيئَتِهِ فَلَا نَظِيرَ لَهُ وَ لَا وَزِيرَ وَ لَا عَدِيلَ وَ لَا وَالِدَ وَ لَا وَلَدَ وَ لَا صَاحِبَةَ فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَ لَا رَبَّ سِوَاهُ.**

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله و إحسان و الحمد لله رب العالمين 120

6-سورة الانعام-مدنية-بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾
هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾
وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ
فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ
وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ)

قدرة الله فى الكون 1-90

هذا إخبار عن حمده و الثناء عليه بصفات الكمال و نعوت العظمة و الجلال عموما و على هذه المذكورات خصوصا. فحمد نفسه على:-

بعض دلائل قدرة الله قدرة الله و وحدانيته 1-3

1-خلقه السماوات و الأرض الدالة على كمال قدرته و سعة علمه و رحمته و عموم حكمته

2-و انفراده بالخلق و التدبير

3-و على جعله الظلمات و النور

(وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ)و ذلك شامل للحسي من ذلك كــ:-الليل و النهار و الشمس و القمر.

و المعنوى كــ:-ظلمات الجهل و الشك و الشرك و المعصية و الغفلة

و نور:- العلم و الإيمان و اليقين و الطاعة

*و هذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة و إخلاص الدين له و مع هذا الدليل و وضوح البرهان(ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)به سواه يسوونهم به في العبادة و التعظيم مع أنهم لم يساووا الله فى شيء من الكمال و هم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه 1

(هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ)و ذلك بخلق مادتكم و أبيكم آدم عليه السلام

(ثُمَّ قَضَىٰٓ)ضرب(أَجَلًا)لمدة إقامتكم فى هذه الدار أجلا تتمتعون به و تمتحنون و تبتلون بما يرسل إليكم به رسله.(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)و يعمركم ما يتذكر فيه من تذكر.

(وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ)الدار الآخرة التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار فيجازيهم بأعمالهم من خير و شر.

*كقوله(قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ) الأعراف: ١٨٧

(ثُمَّ)مع هذا البيان التام و قطع الحجة

(أَنتُمْ تَمْتَرُونَ)تشكون في:-وعد الله و وعيده و وقوع الجزاء يوم القيامة.

و ذكر الله الظلمات بالجمع:-لكثرة موادها و تنوع طرقها.

و وحد النور:-لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها و هي:-

الصراط المتضمنة للعلم بالحق و العمل به كما قال تعالى:-

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) 2

(وَهُوَ ٱللَّهُ)المألوه المعبود(فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ)

فأهل السماء و الأرض متعبدون لربهم خاضعون لعظمته مستكينون لعزه و جلاله الملائكة المقربون و الأنبياء و المرسلون و الصديقون و الشهداء و الصالحون. كقوله(وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ)الزخرف: ٨٤

و هو تعالى (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)

فاحذروا معاصيه و ارغبوا في الأعمال التي تقربكم منهو تدنيكم من رحمته و احذروا من كل عمل يبعدكم منه و من رحمته ٣

*ثم أخبر عن إعراض المشركين و شدة تكذيبهم و عداوتهم و أنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل بهم المَثُلات فقال:-

تعنت المشركين و جدالهم و عاقبتهم 4-11

(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ)الدالة على الحق دلالة قاطعة الداعية لهم إلى اتباعه و قبوله

(إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ)لا يلقون لها بالا و لا يصغون لها سمعا قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها و ولوها أدبارَهم 4

(فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ)

و الحق حقه أن يتبع و يشكر الله على تيسيره لهمو إتيانهم به فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد.

(فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)فسوف يرون ما استهزؤوا به أنه الحق و الصدق و يبين الله للمكذبين كذبهم و افتراءهم و كانوا يستهزؤون بالبعث و الجنة و النار فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين:

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)و قال تعالى(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ* لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ) 5

*ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السالفة فقال:–

(أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ)أى كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين

و أمهلناهم قبل ذلك الإهلاك بأن:–(مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ)لهؤلاء من الأموال و البنين و الرفاهية

(وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ)استدراجا و إملاء لهم

*فينبت لهم بذلك ما شاء الله من:–زروع و ثمار يتمتعون بها و يتناولون منها ما يشتهون

فلم يشكروا الله على نعمه بل:–

1–أقبلوا على الشهوات

2–و ألهتهم أنواع اللذات

3–فجاءتهم رسلهم بالبينات فلم يصدقوها بل ردوها و كذبوها

(فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ)بخطاياهم و سيئاتهم التى اجترحوها

(وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ)جِيلًا آخَرَ لِنَخْتَبِرَهُمْ فَعَمِلُوا مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ فَهَلَكُوا كَهَلَاكِهِمْ.

فهذه سنة الله و دأبه فى الأمم السابقين و اللاحقين فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم 6

*ثم اخبر الله عن شدة عناد الكافرين و أنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جئتهم به و لا لجهل منهم بذلك و إنما ذلك ظلم و بغى لا حيلة لكم فيه فقال:–

(وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ)ما يكتب عليه جلداً أو كاغداً(فَلَمَسُوهُ)و تيقنوه (بِأَيۡدِيهِمۡ)

(لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ)ظلما و علوا

(إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ)

فأي بينة أعظم من هذه البينة و هذا قولهم الشنيع فيها حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن مَن له أدنى مسكة مِن عقل دفعه؟

*كقوله(وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ)الحجر 7

(وَقَالُواْ)أيضا تعنتا مبنيا على الجهل و عدم العلم بالمعقول.

(لَوۡلَآ)هلا(أُنزِلَ عَلَيۡهِ)أى:مع محمد(مَلَكٞ)يعاونه و يساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر و أن رسالة الله لا تكون إلا على أيدى الملائكة.

*قال الله فى بيان رحمته و لطفه بعباده حيث أرسل إليهم بشرا منهم يكون الإيمان بما جاء به عن:–

علم و بصيرة و غيب

(وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ)يؤخرون أو يمهلون و ليس من النظر أى الرؤية

كقوله(مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ) الحجر: ٨ كقوله(يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا) الفرقان: ٢٢

برسالتنا لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق و لكان إيمانا بالشهادة الذى لا ينفع شيئا وحده هذا إن آمنوا و الغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة فإذا لم يؤمنوا قضى الأمر بتعجيل الهلاك عليهم و عدم إنظارهم لأن هذه سنة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها فإرسال الرسول البشرى إليهم بالآيات البينات التي يعلم الله أنها أصلح للعباد و أرفق بهم مع إمهال الله للكافرين و المكذبين خير لهم و أنفع فطلبُهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون و مع ذلك فالملك لو أنزل عليهم و أرسل لم يطيقوا التلقى عنه و لا احتملوا ذلك و لا أطاقته قواهم الفانية 8

وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ
فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ
كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا
فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥
مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ
إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨

(وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ)أي:الرسول المرسل إليهم(مَلَكٗا)إذ لم يقتنعوا بمحمد ﷺ(لَّجَعَلۡنَٰهُ)ذلك الملك(رَجُلٗا)
في صورة البشر حتى يستطيعوا السماع منه و مخاطبته إذ ليس بإمكانهم رؤية الملك على صورته الملائكية و لتُفْهَم مُخَاطَبَتُهُ وَ الِانْتِفَاعِ بِالْأَخْذِ عَنْهُ لأن الحكمة لا تقتضى سوى ذلك.

(وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ)لو جاءهم الملك بصورة رجل لاشتبه الأمر عليهم كما اشتبه عليهم أمر محمد ﷺ

*أي: و لكان الأمر مختلطا عليهم و ملبوسا و ذلك بسبب ما لبَّسوه على أنفسهم فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس و بها عدم بيان الحق.

*فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة و قواعده التي هي قواعده لم يكن ذلك هداية لهم إذا اهتدى بذلك غيرهم و الذنب ذنبهم حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى و فتحوا أبواب الضلال ٩

*يقول تعالى مسليا لرسوله و مصبرا و متهددا أعداءه و متوعدا(وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ)
فللاستهزاء بالرسل عليهم السلام ليس أمرا حادثا لما جاءوا أممهم بالبينات كذبوهم و استهزأوا بهم و بما جاءوا به. فأهلكهم الله بذلك الكفر و التكذيب و وفَّى لهم من العذاب أكمل نصيب.

(فَحَاقَ)فأحاط(بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ)الذي كانوا يهزؤون به و ينكرون وقوعه فاحذروا – أيها المكذبون– أن تستمروا على تكذيبكم فيصيبكم ما أصابهم 10

فإن شككتم في ذلك أو ارتبتم فـــ(قُلۡ)لهؤلاء(سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ)

(ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ)الهلاك و الخزى

فلن تجدوا إلا قوما مهلكين و أمما فى المثلات تالفين قد أوحشت منهم المنازل و عُدِمَ من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل أبادهم الملك الجبار و كان بناؤهم عبرة لأولى الأبصار.

و هذا السير المأمور به:–سير القلوب و الأبدان الذى يتولد منه الاعتبار.

و أما مجرد النظر من غير اعتبار فإن ذلك لا يفيد شيئا.

بعض دلائل وحدانية الله و البعث بعد الموت 12-19

*البخارى3194 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ:-

«لَمَّا قَضَى(خلقه وأحكمه وأمضاه وفرغ منه)اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ(أمر القلم أن يكتب فى اللوح المحفوظ)

فَهُوَ عِنْدَهُ(أى الكتاب)فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»

(تعلق رحمتى سابق و غالب تعلق غضبى أو المراد إن رحمتى أكثر من غضبى لأنها وسعت كل شىء) 11

*يقول تعالى لنبيه ﷺ(قُل)لهؤلاء المشركين بالله مقررا لهم و ملزما بالتوحيد:–

(لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ)أى:مَن الخالق لذلك المالك له المتصرف فيه؟

(قُل)لهم:–(لِّلَّهِۚ)و هم مقرون بذلك لا ينكرونه أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك و التدبير أن يعترفوا له بالإخلاص و التوحيد؟

(كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ)

فللعالم العلوى و السفلى تحت ملكه و تدبيره و هو تعالى قد بسط عليهم رحمته و إحسانه

و تغمدهم برحمته و امتنانه و كتب على نفسه كتابا أن رحمته تغلب غضبه و أن العطاء أحب إليه من المنع

و أن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم و دعاهم إليها

إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم و عيوبهم

(لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ)شك(فِيهِۚ)للحساب والجزاء

و هذا قسم منه و هو أصدق المخبرين و قد أقام على ذلك من الحجج و البراهين ما يجعله حق اليقين

و لكن أبى الظالمون إلا جحودا و أنكروا قدرة الله على بعث الخلائق فأوضعوا فى معاصيه و تجرءوا على الكفر به فخسروا دنياهم وأخراهم

و لهذا قال:(ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ)يُصَدِّقُونَ بِالْمَعَادِ وَ لَا يَخَافُونَ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴿١٢﴾

*اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد بكل دليل عقلى و نقلى بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد و مجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله.فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى

و ينقمع به الشرك فذكر(وَلَهُۥ)تعالى(مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ)

و ذلك هو المخلوقات كلها من :-آدميها و جِنّها و ملائكتها و حيواناتها و جماداتها

فالكل خلق مدبرون و عبيد مسخرون لربهم العظيم القاهر المالك فهل يصح في عقل و نقل أن يعبد مِن هؤلاء المماليك الذى لا نفع عنده و لا ضر؟و يترك الإخلاص للخالق المدبر المالك الضار النافع؟!

أم العقول السليمة و الفطر المستقيمة تدعو إلى إخلاص العبادة و الحب و الخوف و الرجاء لله رب العالمين؟!

(وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ)لجميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفنن الحاجات.

(ٱلْعَلِيمُ)بما كان و ما يكون و ما لم يكن لو كان كيف كان يكون المطلع على الظواهر و البواطن؟!.

*كقوله(قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ)الزمر: ٦٤ 13

(قُلْ)لهؤلاء المشركين بالله:-(أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا)من هؤلاء المخلوقات العاجزة يتولانى و ينصرنى؟!.

فلا أتخذ من دونه تعالى وليا لأنه(فَاطِرِ)خالق و مدبر(ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)

(وَهُوَ يُطْعِمُ)يرزق خلقه(وَلَا يُطْعَمُ)و لا يرزقه أحد

أى:و هو الرزاق لجميع الخلق من غير حاجة منه تعالى إليهم فكيف يليق أن أتخذ وليا غير الخالق الرزاق الغنى الحميد؟

*كقوله(وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ)الذاريات

(قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ)لله بالتوحيد و انقاد له بالطاعة

لأنى أولى من غيرى بامتثال أوامر ربى(وَلَا تَكُونَنَّ)و نُهيت أيضا عن أن أكون (مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ):-

لا فى اعتقادهم و لا فى مجالستهم و لا فى الاجتماع بهم فهذا أفرض الفروض علىَّ و أوجب الواجبات 14

(قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

فإن المعصية فى الشرك توجب الخلود فى النار و سخطَ الجبار 15

(مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ)أى:العذاب(يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ)الصرف هو(ٱلْفَوْزُ)الظفر(ٱلْمُبِينُ)البين بالنجاة من العذاب العظيم.

*كقوله(كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)آل عمران: ١٨٥

و ذلك اليوم هو اليوم الذى يُخاف عذابه و يُحذر عقابه لأنه مَن صُرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم و من نجا فيه فهو الفائز حقا كما أن من لم ينجمنه فهو الهالك الشقى.

و من أدلة توحيده:-أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء و جلب الخير و السراء 16

و لهذا قال:-(وَإِن يَمْسَسْكَ)يصبك(ٱللَّهُ بِضُرٍّ)من فقر أو مرض أو عسر أو غم أو هم أو نحوه.

(فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ)فإذا كان وحده النافع الضار فهو الذى يستحق أن يُفْرَدَ بالعبودية و الإلهية.

كقوله(مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ)فاطر: ٢

*البخارى6330-قال النبيﷺ(وَ لاَ مُعْطِىَ لِمَا مَنَعْتَوَ لاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ)

(وَإِن يَمۡسَسۡكَ)يصبك(بِخَيۡرٖ)كالغنى و الصحة فلا راد لفضله و لا مانع لقضائه

(فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ)القادر على كل شىء17

(وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ)فلا يتصرف منهم متصرف و لا يتحرك متحرك و لا يسكن ساكن إلا بمشيئته و ليس للملوك و غيرهم الخروج عن ملكه و سلطانه بل هم مدبرون مقهورون فإذا كان هو القاهر و غيره مقهورا كان هو المستحق للعبادة.

(وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ)فيما أمر به و نهى و أثاب و عاقب و فيما خلق و قدر.

(ٱلۡخَبِيرُ)المطلع على السرائر و الضمائر و خفايا الأمور و هذا كله من أدلة التوحيد18

قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ
أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾
ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾
وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٢٢﴾
ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ
وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ
وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾
وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾
وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾

(قُلۡ)لهم–لما بينا لهم الهدى و أوضحنا لهم المسالك:–

(أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ)على هذا الأصل العظيم(قُلِ ٱللَّهُۖ)أكبر شهادة فهو(شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ)

فلا أعظم منه شهادة و لا أكبر و هو يشهد لي بإقراره و فعله فيقرني على ما قلت لكم كما قال تعالى:–

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ*لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)فالله حكيم قدير

فلا يليق بحكمته و قدرته أن:–

1–يقر كاذبا عليه زاعما أن الله أرسله و لم يرسله

2–و أن الله أمره بدعوة الخلق و لم يأمره

3–و أن الله أباح له دماء من خالفه و أموالهم و نساءهم و هو مع ذلك يصدقه بإقراره و بفعله فيؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة و الآيات الظاهرة و ينصره و يخذل من خالفه و عاداه فأي شهادة أكبر من هذه الشهادة؟.

(وَأُوحِيَ)أوحى الله(إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ)الكريم لمنفعتكم و مصلحتكم كقوله(وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ)هود: ١٧

(لِأُنذِرَكُم بِهِۦ)من العقاب الأليم .و النذارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به من الترغيب و الترهيب

و ببيان الأعمال و الأقوال الظاهرة و الباطنة التى مَن قام بها فقد قبل النذارة فهذا القرآن فيه النذارة لكم أيها المخاطبون

(وَمَنۢ بَلَغَۚ)و كل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بيّن تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده قال قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله و المكذبين لرسله

(أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ)لتقرون كقوله(فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ)الأنعام: ١٥٠

أي إن شهدوا فلا تشهد معهم.

*فوازِنْ بين:– شهادة أصدق القائلين و رب العالمين و شهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة و الحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له

و شهادة أهل الشرك الذين مرجت عقولهم و أديانهم و فسدت آراؤهم و أخلاقهم و أضحكوا على أنفسهم العقلاء.

*بل خالفوا بشهادة فطرهم و تناقضت أقوالهم على إثبات

(أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰ)مع أنه لا يقوم على ما قالوه أدنى شبهة فضلا عن الحجج

(قُل)لهم(لَّآ أَشۡهَدُۚ)على ما أقررتم به

*و اختر لنفسك أى الشهادتين إن كنت تعقل و نحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه الذي أمرنا الله بالاقتداء به

(قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ)منفرد لا يستحق العبودية و الإلهية سواه كما أنه المنفرد بالخلق و التدبير.

(وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ)به من الأوثان و الأنداد و كل ما أشرك به مع الله

فهذا حقيقة التوحيد إثبات الإلهية لله و نفيها عما عداه19

(ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ)لما بيَّن شهادته و شهادة رسوله على التوحيد و شهادةَ المشركين الذين لا علم لديهم على ضده ذكر أن أهل الكتاب من اليهود و النصارى

معرفة أهل الكتاب للنبى و تكذيبهم و مواقفهم يوم القيامة 20-32

(يَعۡرِفُونَهُۥ)أي يعرفون صحة التوحيد

(كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ)

لا شك عندهم فيه بوجهكما أنهم لا يشتبهون بأولادهم خصوصا البنين الملازمين فى الغالب لآبائهم.

*و يحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺو أن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته

و لا يمترون بها لما عندهم من البشارات به و نعوته التى تنطبق عليه و لا تصلح لغيره و المعنيان متلازمان.

(ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ)أى فوتوها ما خلقت له من الإيمان و التوحيد و حرموها الفضل من الملك المجيد

(فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)فإذا لم يوجد الإيمان منهم فلا تسأل عن الخسار و الشر الذى يحصل لهم20

1–(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا)اختلاق الكذب على الله

2–(أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ)التى جاءت بها المرسلون فإن هذا أظلم الناس و الظالم لا يفلح أبدا

*لا أعظمَ ظلما و عنادا ممن كان فيه أحد الوصفين فكيف لو اجتمعا

و يدخل فى هذا:–

1–كل من كَذَبَ على الله بادعاء الشريك له و العوين

2–أو زعم أنه ينبغى أن يُعْبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولدا و كل من رد الحق الذى جاءت به الرسل أو مَنْ

قام مقامهم(إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ)٢١

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ)

كقوله (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)القصص: ٦٢

يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة و أنهم يُسْألون و يوبخون فيقال لهم :–

(أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)أى إن الله ليس له شريك و إنما ذلك على وجه الزعم منهم و الافتراء22

(ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ)أى: لم يكن جوابهم حين يفتنون و يختبرون بذلك السؤال

(إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)إلا إنكارهم لشركهم و حلفهم أنهم ما كانوا مشركين.

*البخارى مع الفتح(فانهم اذا رأوا أنه لا يدخل الجنة الا أهل الصلاة.....) مطلوب البحث عنها ان شاء الله

في شرح الشيخ الشوربجى23

(ٱنظُرْ)متعجبا منهم و من أحوالهم

(كَيْفَ كَذَبُواْ)كذبوا كذبا عاد بالخسار(عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ)و ضرهم–و الله– غاية الضرر

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)من الشركاء الذين زعموهم مع الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا24

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ)

أى:و من هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعضَ الأوقات بعضُ الدواعى إلى الاستماع لما تقول

و لكنه استماع خال من قصد الحق و اتباعه و لهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع لعدم إرادتهم للخير

(وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً)أغطية و أغشية(أَن يَفْقَهُوهُ)لئلا يفقهوا كلام الله فصان كلامه عن أمثال هؤلاء.

(وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ)جعلنا(وَقْرًا)صمما فلا يستمعون ما ينفعهم.

(وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا)

و هذا غاية الظلم و العناد أن الآيات البينات الدالة على الحق لا ينقادون لها و لا يصدقون بها بـل :–
يجادلون بالباطل الحقَّ ليدحضوه.

و لهذا قال:–(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ)يحاجُّونك و يناظرونك فى الحق بالباطل

(يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ)مأخوذًا من(أَسَٰطِيرُ)صحف(ٱلْأَوَّلِينَ)المسطورة التى ليست عن الله و لا عن رسله.
و هذا من كفرهم و إلا فكيف يكون هذا الكتاب الحاوى لأنباء السابقين و اللاحقين و الحقائق التى جاءت بها
الأنبياء و المرسلون و الحق و القسط و العدل التام من كل وجه أساطيرَ الأولين؟﴿٢٥﴾

(وَهُمْ)أى المشركون بالله المكذبون لرسوله يجمعون بين الضلال و الإضلال

(يَنْهَوْنَ)الناس عن اتباع الحق و يحذرونهم منه

(وَيَنْـَٔوْنَ)يبعدون بأنفسهم(عَنْهُ)و لن يضروا الله و لا عباده المؤمنين بفعلهم هذا شيئا.

(وَإِن)مَا(يُهْلِكُونَ)بِهَذَا الصَّنِيعِ وَ لَا يَعُودُ وَبَالُهُ(إِلَّآ)عَلَى(أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)بذلك﴿٢٦﴾

*يقول تعالى–مخبرا عن حال المشركين يوم القيامة و إحضارهم النارَ:–(وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ)
ليوبخوا و يقرعوا لرأيت أمرا هائلا و حالا مفظعة وَ شَاهَدُوا مَا فِيهَا مِنَ السَّلَاسِلِ وَ الْأَغْلَالِ وَ رَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ تِلْكَ
الْأُمُورَ الْعِظَامَ وَ الْأَهْوَالَ و لرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر و الفسوق و تمنوا أن لو يردون إلى الدنيا.

فَعِنْدَ ذَلِكَ(فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا)تمنى(نُرَدُّ)إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لنعمل عَمَلًا صَالِحًا

(وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

*فإنهم كانوا يخفون فى أنفسهم أنهم كانوا كاذبين و يَبدو فى قلوبهم فى كثير من الأوقات.

و لكن الأغراض الفاسدة صدتهم عن ذلك و صرفت قلوبهم عن الخير و هم كذبة فى هذه الأمنية

و إنما قصدهم أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب27

بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا
وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ
بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا
وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ
وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ
فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ
وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾
وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ
وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

(بَلۡ بَدَا)ظَهَرَ(لَهُم)حِينَئِذٍ(مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ)فِي أَنْفُسِهِمْ(مِن قَبۡلُۖ)مِـنَ:-الْكُفْرِ وَ التَّكْذِيبِ وَ الْمُعَانَدَةِ
وَ إِنْ أَنْكَرُوهَا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ قَبْلَ هَذَا بِيَسِيرٍ {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ 23 انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام]

*وَ يُحْتَمَلُ:- أَنَّهُمْ ظَهَرَ لَهُمْ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ صِدْقِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ كَانُوا يُظْهِرُونَ لِأَتْبَاعِهِمْ خِلَافَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لِفِرْعَوْنَ:-
{لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ بَصَائِرَ} [الْإِسْرَاءِ: 102]
-قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ:-{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النَّمْلِ: 14]

*وَ يُحْتَمَلُ :-
أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُظْهِرُونَ لِلنَّاسِ الْإِيمَانَ وَ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ وَ يَكُونُ هَذَا إِخْبَارًا عَمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ كَلَامِ طَائِفَةٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لَا يُنَافِي هَذَا كَوْنُ هَذِهِ السُّورَةِ مَكِّيَّةً
وَ النِّفَاقُ إِنَّمَا كَانَ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْأَعْرَابِ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ وُقُوعَ النِّفَاقِ فِي سُورَةٍ مَكِّيَّةٍ
وَ هِيَ الْعَنْكَبُوتُ فَقَالَ:{وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [الْعَنْكَبُوتِ: 11]
وَ عَلَى هَذَا فَيَكُونُ إِخْبَارًا عَنْ حَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ حِينَ يُعَايِنُونَ الْعَذَابَ يَظْهَرُ لَهُمْ حينئذ غِبُّ مَا كَانُوا يُبْطِنُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَ الشِّقَاقِ وَ النِّفَاقِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

*وَ أَمَّا مَعْنَى الْإِضْرَابِ فِي قَوْلِهِ:-{وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ}
فَهُم مَا طَلَبُوا الْعَوْدَ إِلَى الدُّنْيَا رَغْبَةً وَ مَحَبَّةً فِي الْإِيمَانِ بَلْ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَايَنُوهُ جَزَاءَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ فَسَأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَتَخَلَّصُوا مِمَّا شَاهَدُوا مِنَ النَّارِ
وَ لِهَذَا قَالَ:-{وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ}فِي تَمَنِّيهِمُ الرَّجْعَةَ رَغْبَةً وَ مَحَبَّةً فِي الْإِيمَانِ.

ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ:-إِنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ مِنَ الْكُفْرِ وَ الْمُخَالَفَةِ 28

(وَقَالُوٓاْ)منكرين للبعث(إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا)أى ما حقيقة الحال و الأمر و ما المقصود من إيجادنا إلا الحياة الدنيا وحدها ثُمَّ لَا مَعَادَ بَعْدَهَا وَ لِهَذَا قَالَ:-(وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ)٢٩

(وَلَوۡ تَرَىٰٓ)الكافرين(إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ)لرأيت أمرا عظيما و هَوْلا جسيما(قَالَ)لهم موبخا و مقرعا:–

(أَلَيۡسَ هَٰذَا)الذى ترون من العذاب و هذا المعاد بحق و ليس بباطل كما كنتم تظنون كقوله

{أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ}[الطُّور: 15]

(بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ)فأقروا و اعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك(قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ)تكذبون به٣٠

(قَدۡ خَسِرَ)خاب و خسر و حُرِم الخير كله(ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ)فأوجب له هذا التكذيب:–

1–الاجتراء على المحرمات 2–و اقتراف الموبقات

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً)و هم على أقبح حال و أسوئه فأظهروا غاية الندم.

و (قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا)و لكن هذا تحسر ذهب وقته

(وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ)

فإن وزرهم وزر يثقلهم و لا يقدرون على التخلص منه و لهذا خلدوا فى النار و استحقوا التأبيد فى غضب الجبار{ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}[النحل: 25]٣١

(وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ)هذه حقيقة الدنيا و حقيقة الآخرة

أما حقيقة الدنيا فإنها:– لعب و لهو لعب فى الأبدان و لهو فى القلوب فـ:–

*القلوب لها والهة *و النفوس لها عاشقة *و الهموم فيها متعلقة *و الاشتغال بها كلعب الصبيان.

و أما الآخرة فإنها:– (خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ)

في ذاتها و صفاتها و بقائها و دوامها و فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين من نعيم القلوب و الأرواح و كثرة السرور و الأفراح و لكنها ليست لكل أحد

و إنما هى للمتقين الذين يفعلون أوامر الله و يتركون نواهيه و زواجره

(أَفَلَا تَعۡقِلُونَ)أفلا يكون لكم عقول بها تدركون أىّ الدارين أحق بـالإيثار٣٢

(قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ)يسوءك(ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ)يقول المكذبون فيك و يحزنك

و لم نأمرك بما أمرناك به من الصبر إلا :–لتحصل لك المنازل العالية و الأحوال الغالية.

فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك و شك فيك.

تسلية النبى و تثبيت فؤاده و تمام قدرة الله 40-47

(فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ)لأنهم يعرفون صدقك و مدخلك و مخرجك و جميع أحوالك حتى إنهم كانوا يسمونه – قبل البعثة– الأمين.

(وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ)فإن تكذيبهم لآيات الله التي جعلها الله على يديك 33

(وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ)فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا.

{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}[يوسف: 110]

(وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ)الَّتِي كَتَبَهَا بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ:-

{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ171 إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ172 وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}الصَّافَّاتِ

وَ قَالَ تَعَالَى:{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الْمُجَادَلَةِ: 21]

(وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ)خبر(ٱلۡمُرۡسَلِينَ) ما به يثبت فؤادك و يطمئن به قلبك34

(وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ)شق عليك من حرصك عليهم و محبتك لإيمانهم فابذل وسعك فى ذلك فليس فى مقدورك أن تهدى من لم يرد الله هدايته.

(فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا)السَّرَبُ(فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا)مصعدًا تصعد (فِي)ـــــه إلى(ٱلسَّمَآءِ)

(فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ)بعلامة و برهان على صحة قولك غير الذى جئناهم به فافعل.

*أى: فافعل ذلك فإنه لا يفيدهم شيئا و هذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين.

(وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ)

و لكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا*أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يُونُسَ: 99]

(فَلَا تَكُونَنَّ)أيها الرسول(مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ)الذين لا يعرفون حقائق الأمور و لا ينزلونها على منازلها الذين اشتد حزنهم و تحسَّروا حتى أوصلهم ذلك إلى الجزع الشديد٣٥

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ
قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ
يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ
فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ
عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ
إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾
فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ
حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ)لدعوتك و يلبى رسالتك و ينقاد لأمرك و نهيك

(ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ)بقلوبهم ما ينفعهم و هم أولو الألباب و الأسماع. و المراد بالسماع هنا:-

سماع القلب و الاستجابة و إلا فمجرد سماع الأذن يشترك فيه البر و الفاجر.

فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله باستماع آياته فلم يبق لهم عذر فى عدم القبول.

*كقوله (لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ) يس: ٧٠

(وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)يحتمل:-

1-أن المعنى مقابل للمعنى المذكور أى:-إنما يستجيب لك أحياء القلوب

و أما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم و لا يحسون بما ينجيهم فإنهم لا يستجيبون لك و لا ينقادون و موعدهم القيامة

2-و يحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها و أن الله تعالى يقرر المعاد و أنه سيبعث الأموات يوم القيامة

ثم ينبئهم بما كانوا يعملون.و يكون هذا متضمنا للترغيب فى الاستجابة لله و رسوله و الترهيب من عدم ذلك36

(وَقَالُوا۟)أى:المكذبون بالرسول تعنتا و عنادا:-

يعنون بذلك آيات الاقتراح التى يقترحونها بعقولهم الفاسدة و آرائهم الكاسدة كقولهم:-

(وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا

تَقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا) الإسراء

(قُلۡ)مجيبا لقولهم(إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ)

فليس في قدرته قصور عن ذلك كيف و جميع الأشياء منقادة لعزته مذعنة لسلطانه؟

(وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ)

فهم لجهلهم و عدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها لعوجلوا بالعقاب كما هي سنة الله التي لا تبديل لها

*و مع هذا فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق و توضح السبيل فقد أتى محمد ﷺبكل آية قاطعة و حجة ساطعة دالة على ما جاء به من الحق بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية و نقلية بحيث لا تبقى في القلوب أدنى شك و ارتياب فتبارك الذى أرسل رسوله بالهدى و دين الحق و أيده بالآيات البينات(لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) الأنفال: ٤٢

*كقوله (وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا)الإسراء٥٩

(إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ) الشعراء ٤ 38

(وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ)

أي :جميع الحيوانات الأرضية و الهوائية من البهائم و الوحوش و الطيور كلها أمم أمثالكم خلقناها.

كما خلقناكم و رزقناها كما رزقناكم و نفذت فيها مشيئتنا و قدرتنا كما كانت نافذة فيكم.

(مَّا فَرَّطۡنَا)أهملنا و لا أغفلنا(فِي ٱلۡكِتَٰبِ)اللوح المحفوظ(مِن شَيۡءٖۚ)شيئا من الأشياء

بل جميع الأشياء صغيرها و كبيرها مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم. و في هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات

*و هذا أحد مراتب القضاء و القدر فإنها أربع مراتب:-

1-علم الله الشامل لجميع الأشياء

2-و كتابه المحيط بجميع الموجودات

3-و مشيئته و قدرته النافذة العامة لكل شيء

4-و خلقه لجميع المخلوقات حتى أفعال العباد.

*و يحتمل أن المراد بالكتاب هذا القرآن و أن المعنى كالمعنى في قوله(وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ) النحل: ٨٩

(ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ)جميع الأمم تُحشر و تُجمع إلى الله في موقف القيامة في ذلك الموقف العظيم الهائل

فـــ:-

1-يجـــــازيهم بعدله و إحسانه

2–و يمضى عليهم حكمه الذى يحمده عليه الأولون و الآخرون أهل السماء و أهل الأرض.

*قال بن عباس:-إن حشرَها بعثُها يوم القيامة(وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ)التكوير: ٥ (٣٨)

(وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا)هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله المكذبين لرسله أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى و فتحوا باب الردى و أنهم (صُمٌّ)عن سماع الحق(وَبُكْمٌ)عن النطق به فلا ينطقون إلا بباطل

(فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ)أى:منغمسون فى:–ظلمات الجهل و الكفر و الظلم و العناد و المعاصى

و هذا من إضلال الله إياهم فـــــ(مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

لأنه المنفرد بالهداية و الإضلال بحسب ما اقتضاه فضله و حكمته (٣٩)

يقول تعالى لرسوله:(قُلْ)للمشركين بالله العادلين به غيره:–(أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ)فى الدنيا

(أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ)التى تبعثون فيها(أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

أي: إذا حصلت هذه المشقات و هذه الكروب التى يُضْطَرُ إلى دفعها هل تدعون آلهتكم و أصنامكم

أم تدعون ربكم الملك الحق المبين (٤٠)

موقف المشركين فى السراء و الضراء و أدلة قدرة الله 40-47

(بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)

فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد تنسونهم لعلمكم أنهم لا يملكون لكم:–

ضرا و لا نفعا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا و تخلصون لله الدعاء لعلمكم أنه هو النافع الضار المجيب لدعوة المضطر

*فما بالكم فى الرخاء تشركون به و تجعلون له شركاء؟.

هل دلكم على ذلك عقل أو نقل أم عندكم من سلطان بهذا؟ بل تفترون على الله الكذب؟

*كقوله(وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا)الإسراء: ٦٧ (٤١)

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ)من الأمم السالفين و القرون المتقدمين فكذبوا رسلنا و جحدوا بآياتنا.

(فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ)بالفقر و المرض و الآفات و المصائب رحمة منا بهم.

(بِٱلْبَأْسَآءِ)الفقر و الضيق فى العيش (وَٱلضَّرَّآءِ)و ه ى الأمراض و الأسقام و الآلام

(لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)إلينا و يلجأون عند الشدة إلينا (٤٢)

(فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا)فهلا إذ جاء هذه الأمم المكذبة بلاؤنا

(تَضَرَّعُواْ)تذللوا لنا(وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ)استحجرت فلا تلين للحق.

(وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)من المعاصى و يأتون من الشرك.

*فظنوا أن ما هم عليه دين الحق فتمتعوا فى باطلهم بُرْهة من الزمان و لعب بعقولهم الشيطان﴿٤٣﴾

(فَلَمَّا نَسُواْ)فلما تركوا العمل(مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ)بأوامر الله تعالى معرضين عنها

(فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ)

من الدنيا و لذاتها و غفلاتها و هذا استدراج منه تعالى و إملاء لهم عياذا بالله من مكره

(حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ)من الأموال و الأولاد و الأرزاق

(أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً) على غرة و غفلة و طمأنية(فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ)آيسون من كل خير و هذا أشد ما يكون من العذاب

ليكون:-1-أشد لعقوبتهم 2-و أعظم لمصيبتهم.

*أحمد 17311 عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-

«إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام: 44]﴿٤٤﴾

الاعجاز

(وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم) الرابط

خلاصة كلام المفسرين:الطيور و الدواب مثل بنى البشر من حيث:-

1-أن الله رزاقهم و محييهم و مميتهم و أكتساب الرزق 2-و من حيث الطباع و السلوك و الأخلاق:-

1-فمن الطيور من خلُقه السرقة 2-و منهم من طبعه الغدر 3-و منهم الوفى و منهم المسالم و منهم الشرس

4-و منهم الاستغلالى 5-و منهم الوفى لزوجته و منهم الخائن و منهم.. الخ.

مثال على الغش عند الحيوانات :

هناك سلوك يسميه العلماء بالتطفل و لكن هو مثال صارخ عن الغش عند الحيوانات.

أما تعريف التطفل:-هو سلوك تسلكه بعض أنواع من الطيور حيث تضع بيوضها فى أعشاش أنواع أخرى من طيور و يقوم الزوج المستضيف بحضانة البيوض و إطعام الفراخ حتى بلوغ مرحلة البلوغ

و من أشهر الأمثلة على ذلك هو:-

1- تصرف طائر الوقواق Common Cuckoo الرمادى الذى يتطفل على أعشاش بعض أنواع الطيور

2-و هناك مثال آخر هو طائر السنونو ذات الرأس الأسود و التى تضع البيض فى أعشاش طيور النورس و طيور البط و من أهم الفصائل التي تلجئ إلى هذا السلوك ه ى:-

Anatidae Estrildid`ae Icterinae Indicatoridae Cuculidae

و كذلك يظهر هذا السلوك السمندرات الأسماك و حتى الحشرات

كيفية و ضع البيض فى أعشاش الطيور الأخرى:

إن عملية وضع البيوض في أعشاش الطيور الأخرى

تخبرنا أن الطيور التى قامت بذلك ه ى الأخرى تمت تربيتها بنفس الطريقة



طائر Acrocephalus يقوم بتغذية ما يظنه فرخه و هو فرخ طائر الوقواق و هذه الظاهرة تدعى التطفل فى الحضانة

حيث وضعت فى أعشاش مضيفة حتى وصلت إلى سن البلوغ

*و قد طورت هذه الطيور أساليب لفعل ذلك حيث غالبا ما تقوم أنثى الطير بهذه العملية

1-حيث تقوم بها فى أقصى درجات السرية

2-و بعد مراقبة شديدة لمجموعة من الأعشاش المستهدفة و حلت طائر الوقواق

3-فإن الذكر يتدخل للتمويه حيث يبدأ بالغناء بالقرب من العش الهدف لإلهاء أصحاب العش

4-و تقوم الأنثى بوضع البيض فيه.

5-و بعض الطيور الأخرى تقوم بتحطيم إحدى البيض و وضع بيضتها مكانها و هذا لإخفاء الزيادة في عدد البيض التي من الممكن أن ينتبه إليها الطير المضيف

6-و تتم عملية الوضع فى وقت وجيز حيث لا تتعدى ثلاث ثوانى عند بعض الأنواع فى حين تأخذ العملية عدة دقائق فى الحالة العادية عند الطيور.

كما أن نمو فراخ الطيور المتطفلة يكون أسرع بكثير من نمو فراخ الطيور المضيفة مما يؤثر في عملية التغذية و بالتالى فهى تحصل على النصيب الأكبر لأنها اكبر من حيث الحجم و أقوى من الفراخ الأخرى للطير المضيف.

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ
وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾
قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾
وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ
وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ
لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم
مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

(فَقُطِعَ)فاستؤصل(دَابِرُ)آخر(ٱلْقَوْمِ)

أى:-أُهلكوا و اصطلموا(استؤصلوا)بالعذاب من أولهم إلى آخرهم و تقطعت بهم الأسباب

(ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ)إذ كفروا بالله و كذَّبوا رسله فلم يبق منهم أحد.

(وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)على ما قضاه و قدره من هلاك المكذبين.

فإن بذلك تتبين آياته و إكرامه لأوليائه و إهانته لأعدائه و صدق ما جاءت به المرسلون﴿٤٥﴾

*يخبر تعالى أنه كما أنه هو المتفرد بخلق الأشياء و تدبيرها فإنه المنفرد بالوحدانية و الإلهية فقال:-

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم)فبقيتم بلا سمع و لا بصر و لا عقل

*فإنه(قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)الملك: ٢٣

وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا عِبَارَةٌ عَنْ مَنْعِ الِانْتِفَاعِ بِهِمَا الِانْتِفَاعَ الشَّرْعِيَّ وَ لِهَذَا قَالَ:+{وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ}

كَمَا قَالَ:{أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ}[يُونُس: 31]وَ قَالَ:-{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأَنْفَال: 24]

(مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ)فإذا لم يكن غير الله يأتى بذلك فلم عبدتم معه من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاءه الله. و هذا من أدلة التوحيد و بطلان الشرك و لهذا قال:-

(ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ)ننوع(ٱلْءَايَٰتِ)و نأتى بها فى كل فن و لتنير الحق و تتبين سبيل المجرمين.

(ثُمَّ هُمۡ)مع هذا البيان التام(يَصۡدِفُونَ)يعرضون عن آيات الله﴿٤٦﴾

(قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ)أخبرونى(إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً)مفاجأة

(أَوۡ جَهۡرَةً)أو قد تقدم أمامه مقدمات تعلمون بها وقوعه.

(هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)الذين صاروا سببا لوقوع العذاب بهم بظلمهم و عنادهم.

فاحذروا أن تقيموا على الظلم فإنه الهلاك الأبدى و الشقاء السرمدى ﴿٤٧﴾

(وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ)يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين أنه البشارة و النذارة

و ذلك مستلزم لبيـــــان:-

مهمة الرسل و انقسام الناس بهم و كمال قدرة و علم الله 48-67

1-المُبَشْر و المُبَشْــر به

2-و الأعمال التى إذا عملها العبد حصلت له البشارة.

3-و المُنـْذر و المُنْذَر به

4-و الأعمال التى من عملها حقت عليه النذارة.

و لكن الناس انقسموا - بحسب إجابتهم لدعوتهم و عدمها- إلى قسمين:-

1-(فَمَنۡ ءَامَنَ)آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و (وَأَصۡلَحَ)إيمانه و أعماله و نيته

(فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ)فيما يستقبل(وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ)على ما مضى﴿٤٨﴾

2-(وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ)ينالهم و يذوقون(ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ)﴿٤٩﴾

*يقول تعالى لنبيه ﷺ المقترحين عليه الآيات أو القائلين له:-إنما تدعونا لنتخذك إلها مع الله.

(قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ)مفاتيح رزق و رحمة(ٱللَّهِ)

(وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ)و إنما ذلك كله عند الله فهو الذى(ما يفتح للناس مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)و هو وحده عالم الغيب و الشهادة فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول.

(وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّى مَلَكٌۖ)فأكون نافذ التصرف قويا فلست أدعى فوق منزلتى التى أنزلنى الله بها.

(إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۚ)هذا غايتى و منتهى أمرى و أعلاه إن أتبع إلا ما يوحى إلى فـــ:-

1-أعمل به فى نفسى

2-و أدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

*فإذا عَرَفْتَ منزلتى فلأى شيء يبحث الباحث معى أو يطلب منى أمرا لست أدعيه و هل يلزم الإنسان بغير ما

هو بصدده؟

و لأى شيء إذا دعوتكم بما أوحي إلي أن تلزمونى أنى أدعى لنفسى غير مرتبتى.

و هل هذا إلا ظلم منكم و عناد و تمرد؟

قل لهم فى بيان الفرق بين من قبل دعوتى و انقاد لما أوحى إلي و بين من لم يكن كذلك

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ)الكافر الذى عَمِى عن آيات الله تعالى فلم يؤمن بها

(وَٱلْبَصِيرُ ۚ)المؤمن الذى أبصر آيات الله فآمن بها؟

(أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

فى آيات الله لتبصروا الحق فتؤمنوا به؟فتنزلون الأشياء منازلها و تختارون ما هو أولى بالاختيار و الإيثار؟

*كقوله(أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ)الرعد: ١٩ ﴿٥٠﴾

(وَأَنذِرْ بِهِ)هذا القرآن نذارة للخلق كلهم و لكن إنما ينتفع به

(ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ)

فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار فلذلك يستصحبون ما ينفعهم و يدَعُون ما يضرهم.

(لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ)أى:لا من دون الله(وَلِيٌّ)من يتولى أمرهم فيحصّل لهم المطلوب و يدفع عنهم المحذور

(وَلَا شَفِيعٌ)و لا من يشفع لهم لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء.

(لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)الله بامتثال أوامره و اجتناب نواهيه فإن الإنذار موجب لذلك و سبب من أسبابه﴿٥١﴾

(وَلَا تَطْرُدِ)عنك و عن مجالستك

(ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم)أهل العبادة و الإخلاص رغبة فى مجالسة غيرهم من الملازمين لدعاء ربهم:-

1-دعاء العبادة:-بالذكر و الصلاة و نحوها

2-دعاء المسألة:-

(بِٱلْغَدَوٰةِ)فى أول النهار (وَٱلْعَشِيِّ)وفى آخر النهار

*الصحيح المسند من أسباب النزول:مسلم(2413) عَنْ سَعْدٍ بن أبي وقاص ﷺ فِيَّ نَزَلَتْ:-

{وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِوَالْعَشِيِّ }[الأنعام: 52] قَالَ:-نَزَلَتْ فِي سِتَّةٍ:-

أَنَا و ابْنُ مَسْعُودٍ مِنْهُمْ وَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ قَالُوا لَهُ:تُدْنِي هَؤُلَاءِ "

*عن سعد ﷺ قال:-كنا مع النبى ﷺستة نفر فقال المشركون للنبى ﷺ:-

اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا.قال: و كنت أنا و ابن مسعود ورجل من هذيل و بلال و رجلان لست أسميهما فوقع فى نفس رسول الله ﷺما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل

{وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}(ابن ماجه رقم 4128)

(يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ)و هم قاصدون بذلك وجه الله ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل

فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم بل مستحقون لموالاتهم و محبتهم و إدنائهم و تقريبهم لأنهم:-

1-الصفوة من الخلق و إن كانوا فقراء

2-و الأعزاء في الحقيقة و إن كانوا عند الناس أذلاء.

(مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ)

أي: كلٌّ له حسابه و له عمله الحسن و عمله القبيح.

(فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

و قد امتثل ﷺهذا الأمر أشد امتثال فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين:-

1-صَبَّرَ نفسَه معهم

2-و أحسن معاملتهم

3-و ألان لهم جانبه

4-و حسن خلقَه

5-و قربهم منه

بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه ﷺ

*و كان سبب نزول هذه الآيات أن أناسا من قريش أو من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ:-

إن أردت أن نؤمن لك و نتبعك فاطرد فلانا و فلانا أناسا من فقراء الصحابة فإنا نستحيي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء فحمله حبه لإسلامهم و اتباعهم له فحدثته نفسه بذلك.

فعاتبه الله بهذه الآية و نحوها ۝٥٢

. . . .

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ
﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ
أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ
قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى
وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾
قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾
۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ
إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

(وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا)ابتلى الله (بَعْضَهُم)أى بعض عباده(بِبَعْضٍ) تباين حظوظهم من الأرزاق و الأخلاق فجعل بعضهم غنيا و بعضهم فقيرا و بعضهم شريفا و بعضهم وضيعا

فإذا مَنَّ الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع كان ذلك محل محنة للغنى و الشريف فإن كان قصده الحق و اتباعه آمن و أسلم و لم يمنعه من ذلك مشاركه الذى يراه دونه بالغنى أو الشرف و إن لم يكن صادقا فى طلب الحق كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق. و قالوا محتقرين لمن يرونهم دونهم:-

(أَهَٰٓؤُلَآءِ)الضعفاء(مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم)بالهداية إلى الإسلام(مِّنۢ بَيْنِنَآ)فمنعهم هذا من اتباع الحق لعدم زكائهم
*مَا كَانَ اللَّهُ لِيَهْدِيَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْخَيْرِ -لَوْ كَانَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ خَيْرًا-وَ يَدَعَنَا كَمَا قَالُوا:-
{لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [الْأَحْقَافِ: 11]وَ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-
{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا}[مَرْيَمَ: 73]
قال الله مجيبا لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله فى هداية هؤلاء و عدم هدايتهم هم:-

(أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ) الذين:-

1-يعرفون النعمة

2-و يقرون بها

3-و يقومون بما تقتضيه من العمل الصالح

فيضع فضله و منته عليهم دون من ليس بشاكر فإن الله تعالى حكيم لا يضع فضله عند من ليس له بأهل

و هؤلاء المعترضون بهذا الوصف بخلاف من مَنَّ الله عليهم بالإيمان من الفقراء و غيرهم فإنهم هم الشاكرون53

*و لما نهى الله رسولَه عن طرد المؤمنين القانتين أمَره بـ:–مقابلتهم بالإكرام و الإعظام و التبجيل و الاحترام

فقال:–(وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا)فـ:–

1–(فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ)حَيِّهم و رحِّب بهم2–و لَقِّهم منك تحية و سلاما

3–و بشرهم بما ينشط عزائمهم و هممهم من:–رحمة الله و سَعة جوده و إحسانه

4–و حثهم على كل سبب و طريق يوصل لذلك.

5–و رَهِّبْهم من الإقامة على الذنوب

6–و أْمُرْهم بالتوبة من المعاصى لينالوا مغفرة ربهم و جُوْدِه

و لهذا قال:–(كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ)
قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ.

(ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ)

أي: فلا بد مع ترك الذنوب و الإقلاع و الندم عليها مـــن:–

1–إصلاح العمل

2–و أداء ما أوجب الله

3–و إصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة و الباطنة.

فإذا وجد ذلك كله(فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)صب عليهم من مغفرته و رحمته بحسب ما قاموا به مما أمرهم به54

(وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ)نوضح و نبين و نميز(ٱلۡأٓيَٰتِ)بين طريق الهدى من الضلال و الغى و الرشاد لـــ:–

1–يهتدى بذلك المهتدون 2–و يتبين الحق الذى ينبغى سلوكه.

(وَلِتَسۡتَبِينَ)لتظهر(سَبِيلُ)طريق(ٱلۡمُجۡرِمِينَ)المخالفين للرسل الموصلة إلى سخط الله و عذابه

*فإن سبيل المجرمين إذا استبانت و اتضحت أمكن اجتنابها و البعد منها بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل55

*يقول تعالى لنبيه ﷺ:–(قُلۡ)لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى:–

(إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ)من الأنداد و الأوثان التى:–

لا تملك نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا فإن هذا باطل و ليس لكم فيه حجة بل و لا شبهة و لا اتباع الهوى الذى اتباعه أعظم الضلال

و لهذا قال ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾إن اتبعت أهواءكم﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾بوجه من الوجوه.

و أما ما أنا عليه من توحيد الله و إخلاص العمل له فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين و الأدلة القاطعة56

﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾بصيرة و يقين ﴿مِّن رَّبِّي﴾شريعة الله التي أوحاها الله إليَّ بصحتها و بطلان ما عداه

و هذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد و هو أعدل الشهود على الإطلاق.

فَصَّدق بها المؤمنون و تبين لهم من صحتها و صدقها بحسب ما مَنَّ الله به عليهم.

﴿ وَ ﴾لكنكم أيها المشركون –و هو لا يستحق هذا منكم و لا يليق به إلا التصديق﴿وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ ﴾

و إذا استمررتم على تكذيبكم فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة و هو عند الله هو الذى ينزله عليكم إذا شاء و كيف شاء

﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ ﴾و إن استعجلتم به فليس بيدى من الأمر شيء

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾فكما أنه هو الذى حكم بالحكم الشرعى فأمر و نهى

فإنه سيحكم بالحكم الجزائى فيثيب و يعاقب بحسب ما تقتضيه حكمته.

فالاعتراض على حكمه مطلقا مدفوع و قد أوضح السبيل فهو ﴿يَقُصُّ﴾على عباده ﴿ٱلۡحَقَّۖ ﴾قصا فـــ:–

1–قطع به معاذيرهم

2–و انقطعت له حجتهم

لـــ:–1–يهلك من هلك عن بينة

2–و يحيا من حى عن بينة

*إنما يرجع أمر ذلك الى الله إن شاء عجَّل لكم ما سألتموه و إن شاء أنظركم و أجَّلكم لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾بين عباده فى الدنيا و الآخرة فيفصل بينهم فصلا يحمده عليه حتى من قضى عليه و وجه الحق نحوه. فهو خير من فصل القضايا و خير الفاتحين فى الحكم بين عباده 57

﴿قُل﴾للمستعجلين بالعذاب جهلا و عنادا و ظلما

﴿لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾

فأوقعته بكم و لا خير لكم فى ذلك و لكن الأمر عند الحليم الصبور الذى يعصيه العاصون

و يتجرأ عليه المتجرئون و هو يعافيهم و يرزقهم و يسدى عليهم نعمه الظاهرة و الباطنة.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾لا يخفى عليه من أحوالهم شيء فيمهلهم و لا يهملهم58

(۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ)

*البخارى1039 عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-مِفْتَاحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ:-

1-لاَ يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي غَدٍ

2-وَ لاَ يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي الأَرْحَامِ

3-وَ لاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا

4-وَ مَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ

5-وَ مَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ المَطَرُ))كقوله (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ)لقمان: ٣٤

هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط و أنه شامل للغيوب كلها التى يطلع منها ما شاء من خلقه. و كثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين و الأنبياء المرسلين فضلا عن غيرهم من العالمين و أنه يعلم ما فى البرارى و القفار من الحيوانات و الأشجار و الرمال و الحصى و التراب و ما فى البحار من حيواناتها و معادنها و صيدها و غير ذلك مما تحتويه أرجاؤها و يشتمل عليه ماؤها.

(وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ)من أشجار البر و البحر و البلدان و القفر و الدنيا و الآخرة

(إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ)من حبوب الثمار و الزروع و حبوب البذور التى يبذرها الخلقى و بذور النوابت البرية التى ينشئ منها أصناف النباتات.

(وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ)هذا عموم بعد خصوص

(إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ)و هو اللوح المحفوظ قد حواها و اشتمل عليها و بعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء و يذهل أفئدة النبلاء فدل هذا على:–

1–عظمة الرب العظيم و سعته فى أوصافه كلها.

2–و أن الخلق–من أولهم إلى آخرهم–لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته لم يكن لهم قدرة و لا وسع في ذلك

فتبارك الرب العظيم الواسع العليم الحميد المجيد الشهيد المحيط. وجل مِنْ إله لا يحصى أحد ثناء عليه بل كما أثنى على نفسه و فوق ما يثنى عليه عباده

فهذه الآية دلت على:–

1–علمه المحيط بجميع الأشياء

2–و كتابه المحيط بجميع الحوادث59

وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ
ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ
وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١
ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢
قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣
قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٦٤ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ
أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥
وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧
وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ
وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨

(وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ)فأخبر أنه وحده المتفرد بتدبير عباده في يقظتهم و منامهم و أنه يتوفاهم بالليل وفاة النوم فتهدأ حركاتهم و تستريح أبدانهم و يبعثهم في اليقظة من نومهم ليتصرفوا في مصالحهم الدينية و الدنيوية

(وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ)أي في النهار و هو–تعالى–يعلم ما جرحوا و ما كسبوا من تلك الأعمال.

(ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ)ثم يعيد أرواحكم إلى أجسامكم باليقظة من النوم نهارًا بما يشبه الأحياء بعد الموت؛

(لِيُقۡضَىٰٓ)فيقضى بهذا التدبير

(أَجَلٞ مُّسَمّٗى)و هو:أجل الحياة و أجل آخر فيما بعد ذلك و هو البعث بعد الموت و لهذا قال:–

(ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ)يوم القيامة لا إلى غيره

(ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ)من خير و شر

كقوله (وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ) القصص: ٧٣

*هذا كله:–

1–تقرير لألوهيته 2–و احتجاج على المشركين به

3–و بيان أنه تعالى المستحق للحب و التعظيم و الإجلال و الإكرام60

(وَهُوَ)تعالى(ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ)هُوَ الَّذِى قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَ خَضَعَ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَ كِبْرِيَائِهِ كُلُّ شَيْءٍ.

*ينفذ فيهم إرادته الشاملة و مشيئته العامة فليسوا يملكون من الأمر شيئا و لا يتحركون و لا يسكنون إلا بإذنه

(وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً)

*و مع ذلك فقد وكل بالعباد حفظةً من الملائكة :-

1-يحفظون العبد كَمَا قَالَ تَعَالَى {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}[الرَّعْدِ: 11]

2-و يحفظون عليه ما عمل وَ يُحْصُونَهُ عَلَيْهِ كقوله{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ10 كِرَامًا كَاتِبِينَ11يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}

[الِانْفِطَارِ]وَ قَالَ:{عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ17 مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[ق]

*فهذا حفظه لهم فى حال الحياة(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا)الملائكة الموكلون بقبض الأرواح

(وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ)فى ذلك فلا يزيدون ساعة مما قدره الله و قضاه و لا ينقصون و لا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية و التقادير الربانية

*فِي حِفْظِ رُوحِ الْمُتَوَفَّى بَلْ يَحْفَظُونَهَا وَ يُنْزِلُونَهَا حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:-

1-إِنْ كَانَ مِنَ الْأَبْرَارِ فَفِى عِلِّيِّينَ

2-وَ إِنْ كَانَ مِنَ الْفُجَّارِ فَفِى سِجِّينٍ عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ61

(ثُمَّ)بعد الموت و الحياة البرزخية و ما فيها من الخير و الشر

(رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ)أى الذى:-

1-تولاهم بحكمه القدرى فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير

2-ثم تولاهم بأمره و نهيه3-و أرسل إليهم الرسل 4-و أنزل عليهم الكتب

*ثم ردوا إليه لـــــــــ:-

1-يتولى الحكم فيهم بالجزاء 2-و يثيبهم على ما عملوا من الخيرات 3-و يعاقبهم على الشرور و السيئات

وَ لهذا قال(أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ)القضاء و الفصل يوم القيامة بين عباده وحده لا شريك له

(ثُمَّ رُدُّوٓاْ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ)

لا يحتاج إلى فكرة و روية و لا عقد يدٍ لكمال علمه و حفظه لأعمالهم بما أثبته في اللوح المحفوظ

*شرح السنة للبغوى:-وَ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[إِبْرَاهِيمَ: 51]أَى:-

حسابه وَاقع لَا محَالة و كل مَا هُوَ وَاقع لَا محَالة فَهُوَ سريع وَ قِيلَ:-

سرعَة حسابه أَنَّهُ لَا يشْغلهُ حِسَاب وَاحِد عَنْ حِسَاب الآخر لا يشْغلهُ سمع عَنْ سمع فَهُوَ أسْرع الحاسبين

ثم أثبتته ملائكته في الكتاب الذى بأيديهم فإذا كان تعالى هو :-

1-المنفرد بالخلق و التدبير

2–و هو القاهر فوق عباده

3–و قد اعتنى بهم كل الاعتناء فى جميع أحوالهم

4–و هو الذى له الحكم القدرى و الحكم الشرعى و الحكم الجزائى

فأين للمشركين العدولُ عن من هذا و صفه و نعته إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء و لا عنده مثقال ذرة من النفع و لا له قدرة و إرادة ؟ أما و الله لو علموا حلم الله عليهم و عفوه و رحمته بهم و هم:–

1–يبارزونه بالشرك و الكفران

2–و يتجرءون على عظمته بالإفك و البهتان و هو يعافيهم و يرزقهم

لــ:–

1–انجذبت دواعيهم إلى معرفته 2–و ذهلت عقولهم فى حبه

3–و لمقتوا أنفسهم أشد المقت حيث انقادوا لداعى الشيطان الموجب للخزى و الخسران

و لكنهم قوم لا يعقلون. كقوله(قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ) الواقعة 62

(قُلۡ)أى للمشركين بالله الداعين معه آلهة أخرى ملزما لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية على ما أنكروا من توحيد الإلهية

(مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ)شدائدهما و مشقاتهما و حين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة

(تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا)جهرا(وَخُفۡيَةٗ)و سرا

فتدْعون ربكم تضرعا بقلب خاضع و لسان لا يزال يلهج بحاجته فى الدعاء و تقولون و أنتم فى تلك الحال:–

(لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ)الشدة التى وقعنا فيها

(لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ)

لله أى المعترفين بنعمته الواضعين لها في طاعة ربهم الذين حفظوها عن أن يبذلوها فى معصيته63

(قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ)أى:من هذه الشدة الخاصة و من جميع الكروب العامة.

(ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ)لا تفون لله بما قلتم و تنسون نعمه عليكم

*فأى برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك و صحة التوحيد؟

*تدعون معه فى حال الرفاهية آلهة أخرى64

(قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا)أى هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة.

(مِّن فَوۡقِكُمۡ)الرجم-كالحجارة التى أرسلت على قوم لوط والماء المنهمر الذى أنزل على قوم نوح فأغرقهم

(أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ)الخسف يشهد له قوله:-(ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ)الملك. كالخسف بقارون وإغراق آل فرعون

(أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ)يخلطكم(شِيَعٗا)يَجْعَلَكُمْ مُلْتَبِسِينَ شِيَعًا فِرَقًا مُتَخَالِفِينَ. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ

(وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ)يسلط بعضكم على بعض بالعذاب و القتل

أى:فى الفتنة و قتل بعضكم بعضا. فهو قادر على ذلك كله فاحذروا من الإقامة على معاصيه فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم و يمحقكم و مع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك.

و لكن من رحمته أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بـــــ:-

1-الرجم 2-و الحصب و نحوه 3-و من تحت أرجلهم بالخسف.

و لكن عاقب من عاقب منهم بأن :-

1-أذاق بعضهم بأس بعض

2-و سلط بعضهم على بعض عقوبة عاجلة يراها المعتبرون و يشعر بها العالمون .

(ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ)ننوع(ٱلۡأٓيَٰتِ)و نأتى بها على أوجه كثيرة و كلها دالة على الحق.

(لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ)يفهمون ما خلقوا من أجله و يفقهون:-

1- الحقائق الشرعية

2-و المطالب الإلهية

*البخارى4628 عَنْ جَابِرٍ ﷺقَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ [الأنعام: 65] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» قَالَ:{أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} [الأنعام: 65]

قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»(أستجير بك و ألتجئ إليك){أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} [الأنعام: 65] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«هَذَا أَهْوَنُ-أَوْ هَذَا أَيْسَرُ-»(أى فتنة الخلق وتسليط بعضكم على بعض أهون من عذاب الله تعالى 65

(وَكَذَّبَ بِهِۦ)أى:بالقرآن(قَوۡمُكَ)قريشا(وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ)الذى لا مرية فيه و لا شك يعتريه.

(قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ)أحفظ أعمالكم و أجازيكم عليها و إنما أنا منذر و مُبلغ66

(لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ)أى: وقت يستقر فيه و زمان لا يتقدم عنه و لا يتأخر.

*أَىْ لِكُلِّ نَبَأٍ حَقِيقَةٌ أَىْ: لِكُلِّ خَبَرٍ وُقُوعٌ وَ لَوْ بَعْدَ حِينٍ كَمَا قال:{وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} [ص: 88]

وَ قَالَ{لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرَّعْدِ: 37] (وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ)ما توعدون به من العذاب67

(وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا)

المراد بالخوض في آيات الله:-

1–التكلم بما يخالف الحق من:–تحسين المقالات الباطلة و الدعوة إليها و مدح أهلها

2–و الإعراض عن الحق و القدح فيه و فى أهله

فأمر الله رسوله أصلا و أمته تبعا إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر بـــ:–

(فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ)

النهى عن مجالسة المستهزئين و عقابهم و الرد على المشركين و تحذيرهم 68-73

1–الإعراض عنهم حتى يأخذوا فى حديث آخر

2–و عدم حضور مجالس الخائضين بالباطل و الاستمرار على ذلك حتى يكون البحث و الخوض فى كلام غيره

*فإذا كان فى كلام غيره زال النهي المذكور.

*فإن كان مصلحة كان مأمورا به

*و إن كان غير ذلك كان غير مفيد و لا مأمور به

و فى ذم الخوض بالباطل حث على البحث و النظر و المناظرة بالحق. ثم قال:–

(وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ)بأن جلست معهم على وجه النسيان و الغفلة.

(فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ)التذكر

(مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)يشمل الخائضين بالباطل و كل متكلم بمحرم أو فاعل لمحرم

فإنه يحرم الجلوس و الحضور عند حضور المنكر الذى لا يقدر على إزالته

*هذا النهى و التحريم لمن:–جلس معهم و لم يستعمل تقوى الله بأن:–

1–كان يشاركهم في القول و العمل المحرم 2–أو يسكت عنهم و عن الإنكار

فإن استعمل تقوى الله تعالى بأن:–

1–كان يأمرهم بالخير

2–و ينهاهم عن الشر و الكلام الذى يصدر منهم ⇦فيترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه

فهذا ليس عليه حرج و لا إثم68 و لهذا قال:–

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾
وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ
لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾
قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ
فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ
وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ
وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

(وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ) و ما على المؤمنين الذين يخافون الله تعالى فيطيعون أوامره و يجتنبون نواهيه

(مِنْ حِسَابِهِم)من حساب الله للخائضين المستهزئين بآيات الله

(مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ)أى:و لكن ليذكرهم و يعظهم(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)الله تعالى.

و في هذا دليل على:-أنه ينبغي أن يستعمل المذكِّرُ من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى.

و فيه دليل على أنه:-إذا كان التذكير و الوعظ مما يزيد الموعوظ شرا إلى شره إلى أن تركه هو:-الواجب

لأنه إذا ناقض المقصود كان تركه مقصودا69

(وَذَرِ)اترك-أيها الرسول-(ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ۚ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا)

أي:-هؤلاء المشركين الذين جعلوا دين الإسلام لعبًا و لهوًا مستهزئين بآيات الله تعالى

(وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ)بزينتها

المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين بأن:-

1-يعبدوه وحده لا شريك له

2-و يبذلوا مقدورهم في مرضاته و محابه.

و ذلك متضمن:-

1-لإقبال القلب على الله و توجهه إليه

2-و كون سعى العبد نافعا و جدًّا لا هزلا

3–و إخلاصا لوجه الله لا رياء و سمعة

هذا هو الدين الحقيقى الذى يقال له دين فأما من زعم أنه على الحق و أنه صاحب دين و تقوى

و قد اتخذ دينَه لعبا و لهوا بأن:–

1–لَهَا قلبُه عن محبة الله و معرفته

2–و أقبل على كل ما يضره

3–و لَهَا فى باطله

4–و لعب فيه ببدنه

لأن العمل و السعى إذا كان لغير الله فهو لعب فهذا أَمَر الله تعالى أن يترك و يحذر و لا يغتر به و تنظر حاله و يحذر من أفعاله و لا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

(وَذَكِّرْ بِهِۦٓ)بالقرآن:–

1–ما ينفع العباد أمرا و تفصيلا و تحسينا له بذكر ما فيه من أوصاف الحسن

2–و ما يضر العباد نهيا عنه و تفصيلا لأنواعه و بيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركه

(أَن)لئلا(تُبْسَلَ)تُسلم أو تفتضح أو تُحبس أو تُؤاخذ(نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ)

قبل اقتحام العبد للذنوب و تجرئه على علام الغيوب و استمرارها على ذلك المرهوب فذكرها وعِظْهَا لترتدع و تنزجر و تكف عن فعلها.

كقوله (كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ)المدثر

(لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ)أى:–قبل أن تحيط بها ذنوبها ثم لا ينفعها أحد من الخلق لا قريب و لا صديق و لا يتولاها من دون الله أحد و لا يشفع لها شافع

*(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)البقرة: ٢٥٤

(وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ)و لو بذلت كل مبذول ما قُبِلَ منها كقوله:-

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ)آل عمران: ٩١

*أى:تفتدى بكل فداء و لو بملء الأرض ذهبا (لَّا يُؤْخَذْ)يقبل و لا يفيد(مِنْهَآ ۗ)

(أُوْلَٰٓئِكَ)الموصوفون بما ذكر(ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ)أهلكوا و أيسوا من الخير و ذلك

(بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ)ماء حار قد انتهى حره يشوى وجوههم و يقطع أمعاءهم

(وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ)70

*قَالَ السُّدِّى: قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ:-اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ اتْرُكُوا دِينَ مُحَمَّدٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

(قُلْ)يا أيها الرسول للمشركين بالله الداعين معه غيره الذين يدعونكم إلى دينهم مبينا و شارحا لوصف آلهتهم التى يكتفى العاقل بذكر وصفها عن النهى عنها فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين جَزَمَ ببطلانه قبل أن تقام البراهين على ذلك فقال:-

(أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا)

و هذا وصف يدخل فيه كل مَن عُبِد مِنْ دون الله فإنه لا ينفع و لا يضر و ليس له من الأمر شيء إن الأمر إلا لله

(وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا)أَىْ:-فِى الْكُفْر(بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ)و ننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال و من الرشد إلى الغى و من الصراط الموصل إلى جنات النعيم إلى الطرق التى تفضى بسالكها إلى العذاب الأليم.

فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد و صاحبها فَيَكُونُ مثلُنا(كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ)مُثْلُ قَوْلِهِ:-{تَهْوِى إِلَيْهِمْ}[إِبْرَاهِيمَ: 37]

(ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ)أضلته و تيهته عن طريقه و منهجه له الموصل إلى مقصده فبقى(حَيْرَانَ)

يَقُولُ:-مَثَلُكُمْ إِنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَ مَعَ قَوْمٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَضَلَّ الطَّرِيقَ فَحَيَّرَتْهُ الشَّيَاطِينُ وَ اسْتَهْوَتْهُ فِى الْأَرْضِ(لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ)عَلَى الطَّرِيقِ فَجَعَلُوا(يَدْعُونَهُۥٓ)إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ:-

(إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا)فَإِنَّا عَلَى الطَّرِيقِ"فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ.

فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَ مُحَمَّدٌ هُوَ الَّذِى يَدْعُو إِلَى الطَّرِيقِ وَ الطَّرِيقُ هُوَ الْإِسْلَامُ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

و الشياطين يدعونه إلى الردى فبقى بين الداعين حائرا و هذه حال الناس كلهم إلا من عصمه الله تعالى

فإنهم يجدون فيهم جواذب و دواعى متعارضة:-

1-دواعى الرسالة و العقل الصحيح و الفطرة المستقيمة(يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى)و الصعود إلى أعلى عليين.

2-و دواعى الشيطان و من سلك مسلكه و النفس الأمارة بالسوء يدعونه إلى الضلال و النزول إلى أسفل سافلين فمن الناس من يكون مع داعى الهدى فى أموره كلها أو أغلبها و منهم من بالعكس من ذلك.

و منهم من يتساوى لديه الداعيان و يتعارض عنده الجاذبان

و فى هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة.

(قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ)

أى:ليس الهدى إلا الطريق التى شرعها الله على لسان رسوله و ما عداه فهو ضلال و ردى و هلاك.

*كقوله(وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ) الزمر: ٣٧

(وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)بأن ننقاد لتوحيده و نستسلم لأوامره و نواهيه و ندخل تحت عبوديته فإن هذا

أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد و أكمل تربية أوصلها إليهم71

(وَأَنْ أَقِيمُوا۟)و أمرنا أن نقيم(ٱلصَّلَوٰةَ)بأركانها و شروطها و سننها و مكملاتها.

(وَٱتَّقُوهُ ۚ)بفعل ما أمر به و اجتناب ما عنه نهى.

(وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)أى:تُجْمَعون ليوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم خيرها و شرها72

(وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ)فلم يخلقهما عبثاً وباطلاً بل خلقهما ليذكر فيهما و يشكر

*ليأمر العباد و ينهاهم و يثيبهم و يعاقبهم

(وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ)الذى لا مرية فيه و لا مثنوية و لا يقول شيئا عبثا

(وَلَهُ ٱلْمُلْكُ)كقوله (لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ) غافر: ١٦

(يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ)

أى:يوم القيامة خصه بالذكر—مع أنه مالك كل شيء—لأنه تنقطع فيه الأملاك فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار

*الترمذى 3243 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-
«كَيْفَ أَنْعَمُ وَ قَدِ التَقَمَ صَاحِبُ القَرْنِ القَرْنَ وَ حَنَى جَبْهَتَهُ وَ أَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ فَيَنْفُخَ»قَالَ المُسْلِمُونَ: فَ كَيفَ نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟قَالَ:-قُولُوا:-حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الوَكِيلُ تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ رَبِّنَا

(عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ)

الذي له الحكمة التامة و النعمة السابغة و الإحسان العظيم و العلم المحيط بالسرائر و البواطن و الخفايا

لا إله إلا هو و لا رب سواه73

۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤
وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ
رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ
فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ
قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨
إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩
وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ
وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ
وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ
فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١

(وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ)يقول تعالى:–و اذكر قصة إبراهيم الطَّيْئِلاَ مثنيا عليه و معظما فى حال دعوته إلى التوحيد و نهيه عن الشرك

محاورة ابراهيم لأبيه و قومه و اقامة 74-81

إذ قال (لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً)أى:لا تنفع و لا تضر و ليس لها من الأمر شيء

(إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ)

حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئا و تركتم عبادة خالقكم و رازقكم و مدبركم.

*البخارى3350 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَ عَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ(سواد الدخان)وَ غَبَرَةٌ(غبار ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه ولعل المراد هنا ما يغشى الوجه من شدة الكرب وما يعلوه من ظلمة الكفر)
فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ:-أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَاتَعْصِنِى فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ:-
يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِى أَنْ لَا تُخْزِيَنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟
فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:-إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟
فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ(ذكر الضبع الكثير الشعر أرى أباه على غير هيئته و منظره ليسرع إلى التبرء منه)مُلْتَطِخٍ(متلوث بالدم ونحوه)فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ74

(وَكَذَٰلِكَ)حين وفقناه للتوحيد و الدعوة إليه (نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)

أى: ليرى ببصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة و البراهين الساطعة

(وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ) الأنعام: ٥٥

(وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ)فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان و العلم التام بجميع المطالب75

(فَلَمَّا جَنَّ)أظلم(عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ)لعله من الكواكب المضيئة لأن تخصيصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره

و لهذا –و الله أعلم–قال من قال:–إنه الزُهْرة(قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ)على وجه التنزل مع الخصم أى: –

هذا ربي فهلم ننظر هل يستحق الربوبية؟ و هل يقوم لنا دليل على ذلك؟

فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة و لا برهان.

(فَلَمَّآ أَفَلَ)غاب ذلك الكوكب(قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ)أى:الذى يغيب و يختفى عمن عبده

فإن المعبود لا بد أن يكون قائما بمصالح من عبده و مدبرا له في جميع شئونه

فأما الذى يمضى وقت كثير و هو غائب فمن أين يستحق العبادة؟!

و هل اتخاذه إلها إلا من أسفه السفه و أبطل الباطل؟! 76

(فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا)طالعا رأى زيادته على نور الكواكب و مخالفته لها(قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ)تنزلا.

(فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ)

فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادى له و إن لم يعنه على طاعته فلا معين له77

(فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ)من الكوكب و من القمر.

(فَلَمَّآ أَفَلَتۡ)تقرر حينئذ الهدى و اضمحل الردى

فــ(قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ)حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه78

(إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ)لله وحده مقبلا عليه معرضا عن من سواه.

(وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ)

فتبرأ من الشرك و أذعن بالتوحيد و أقام على ذلك البرهان و هذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب

و هو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه و بيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية و غيرها.

و أما من قال: إنه مقام نظر في حال طفوليته فليس عليه دليل .

*وَ كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ نَاظِرًا فِي هَذَا الْمَقَامِ وَ هُوَ الَّذِى قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّهِ:-

{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ51إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} [الأنبياء]

*البخارى4775 - عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»ثُمَّ يَقُولُ:{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ}[الروم: 30]

*مسلم عن عياض بن حمارﷺ أن رسول اللهﷺ قال: قال الله وَ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَ إِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ كقوله

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ)الروم: ٣٠

*فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ سَائِرِ الْخَلِيقَةِ فَكَيْفَ يَكُونُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ-الَّذِى جَعَلَهُ اللَّهُ {أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[النَّحل: 120]نَاظِرًا فِي هَذَا الْمَقَامِ؟!

بَلْ هُوَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ وَ السَّجِيَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِﷺبِلَا شَكٍّ وَ لَا رَيْبٍ79

وَ مِمَّا يُؤَيِّدُ أَنَّهُ كَانَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُنَاظِرًا لِقَوْمِهِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ لَا نَاظِرًا قَوْلُهُ تَعَالَى:-

(وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ)

أيُّ فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى؟ فأما من هداه الله و وصل إلى أعلى درجات اليقين

فإنه –هو بنفسه– يدعو الناس إلى ما هو عليه.

(وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ)فإنها لن تضرنى و لن تمنع عنى من النفع شيئا.

(إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۚ)استثناء منقطع أى لا يضر و لا ينفع إلا الله

(وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية.

*فِيمَا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ فَتَعْتَبِرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ بَاطِلَةٌ فَتُزْجَرُوا عَنْ عِبَادَتِهَا؟ وَهَذِهِ الْحُجَّةُ نَظِيرُ مَا احْتَجَّ بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ هُودٌعليه السلامعَلَى قَوْمِهِ عَادٍ فِيمَا قَصَّ عَنْهُمْ فِي كتابه:-

حَيْثُ يَقُولُ:{قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ53 إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ54 مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ55 إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} هُودٍ80

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ)و حالها حال العجز و عدم النفع

(وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ)إلا بمجرد اتباع الهوى.

(سُلْطَٰنًاۚ)حجة(فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

*فَأَيُّ الطَّائِفَتَيْنِ أَصْوَبُ؟

الَّذِى عَبَدَ مَنْ بِيَدِهِ الضُّرَّ وَ النَّفْعَ أَوِ الَّذِى عَبَدَ مَنْ لَا يَضُرُّ وَ لَا يَنْفَعُ بِلَا دَلِيلٍ

أَيُّهُمَا أَحَقُّ بِالْأَمْنِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟81

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢

وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣

وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ

وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ

كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦

وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠

قال الله تعالى فاصلا بين الفريقين:-(ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ)

1-(أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ)من المخاوفِ و العذاب و الشقاء

2-(وَهُم مُّهۡتَدُونَ)إلى الصراط المستقيم

*فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقا لا بشرك و لا بمعاص⇦حصل لهم الأمن التام و الهداية التامة.

*و إن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده و لكنهم يعملون السيئات⇦حصل لهم أصل الهداية و أصل الأمن و إن لم يحصل لهم كمالها.

*و مفهوم الآية الكريمة:-

أن الذين لم يحصل لهم الأمران لم يحصل لهم هداية و لا أمن بل حظهم:-الضلال و الشقاء

*البخارى 4629 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ:-

لَمَّا نَزَلَتْ:{وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}[الأنعام: 82]قَالَ أَصْحَابُهُ:-وَ أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ؟فَنَزَلَتْ:{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[لقمان: 13]

*أحمد 3589 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}[الأنعام: 82]

شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ وَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟

قَالَ:إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِى تَعْنُونَ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ:-{يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[لقمان: 13]

إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ" 82

*و لما حكم لإبراهيم عليه السلام بما بين به من البراهين القاطعة قال:-

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ)علا بها عليهم و فلجهم بها.

*المراد بذلك قوله(وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) الأنعام: ٨١

(نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ)كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام فى الدنيا و الآخرة

فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات. خصوصا العالم العامل المعلم

فإنه يجعله الله إماما للناس بحسب حاله:-

1-تُرْمق أفعاله 2-و تُقْتفى آثاره 3-و يُسْتضاء بنوره 4-و يُمْشى بعلمه فى ظلمة ديجوره.

قال تعالى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

فلا يضع العلم و الحكمة إلا فى المحل اللائق بها و هو أعلم بذلك المحل و بما ينبغى له.

*كقوله(إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ) يونس83

*لما ذكر الله تعالى عبده و خليله إبراهيم عليه السلام و ذكر ما مَنَّ الله عليه به من العلم و الدعوة و الصبر ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة و النسل الطيب. و أن الله جعل صفوة الخلق من نسله و أعظم بهذه المنقبة و الكرامة الجسيمة التى لا يدرك لها نظير فقال:-

هداية الله للأنبياء و حقيقتهم و الاقتداء بهم 84-90

(وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ)

ابنه الذى هو إسرائيل أبو الشعب الذى فضله الله على العالمين.

(كُلًّا)منهما(هَدَيْنَاۚ)وفقناه للصراط المستقيم فى علمه و عمله.

(وَنُوحًا هَدَيْنَا)وفَّقنا للحق(مِن قَبْلُۖ)إبراهيم و إسحاق و يعقوب

و هدايته من أنواع الهدايات الخاصة التى لم تحصل إلا لأفراد من العالم و هم أولو العزم من الرسل الذى هو أحدهم

(وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ)

1-يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح لأنه أقرب مذكور و لأن الله ذكر مع من ذكر لوطا و هو من ذرية نوح لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه.

2-و يحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم لأن السياق في مدحه و الثناء عليه و لوط-و إن لم يكن من ذريته-فإنه ممن آمن على يده فكان منقبة الخليل و فضيلته بذلك أبلغ من كونه مجرد ابن له.

(دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ)بن داود(وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ)بن يعقوب(الَّذى فِيهِ اشْتِقَاقُ الْعَقِبِ وَ الذُّرِّيَّةِ)

(وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ)ابنى عمران

(وَكَذَٰلِكَ)كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل لأنه أحسن فى عبادة ربه و أحسن فى نفع الخلق

(نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ)بأن نجعل لهم من الثناء الصدق و الذرية الصالحة بحسب إحسانهم84

(وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ)ابنه(وَعِيسَىٰ)ابن مريم(وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ)هؤلاء

(مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)فى أخلاقهم و أعمالهم و علومهم بل هم سادة الصالحين و قادتهم و أئمتهم.

*يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ وَهَبَ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ بَعْدَ أَنْ طَعَن فِي السِّنِّ وَ أَيِسَ هُوَ وَ امْرَأَتُهُ "سَارَةُ" مِنَ الْوَلَدِ فَجَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُمْ ذَاهِبُونَ إِلَى قَوْمِ لُوطٍ فَبَشَّرُوهُمَا بِإِسْحَاقَ فَتَعَجَّبَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ ذَلِكَ وَ قَالَتْ:-

{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ءأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ72 قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ}[هُودٍ] وَ بَشَّرُوهُ مَعَ وُجُودِهِ بِنُبُوَّتِهِ وَ بِأَنَّ لَهُ نَسْلًا وعَقِبا

كَمَا قَالَ:{وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}[الصَّافَّاتِ: 112]وَ هَذَا أَكْمَلُ فِي الْبِشَارَةِ وَأَعْظَمُ فِي النِّعْمَةِ

وَ قَالَ:{فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}[هُودٍ: 71] أَيْ: وَ يُولَدُ لِهَذَا الْمَوْلُودِ وَلَدٌ فِي حَيَاتِكُمَا فَتَقَرُّ أَعْيُنُكُمَا بِهِ كَمَا قَرَّتْ بِوَالِدِهِ فَإِنَّ الْفَرَحَ بِوَلَدِ الْوَلَدِ شَدِيدٌ لِبَقَاءِ النَّسْلِ وَ الْعَقِبِ

وَ لَمَّا كَانَ وَلَدُ الشَّيْخِ وَ الشَّيْخَةِ قَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ لَا يَعْقب لِضَعْفِهِ وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِ وَ بِوَلَدِهِ بَاسِمِ "يَعْقُوبَ" وَ كَانَ هَذَا مُجَازَاةً لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام حِينَ اعْتَزَلَ قَوْمَهُ وَ تَرَكَهُمْ وَ نَزَحَ عَنْهُمْ وَ هَاجَرَ مِنْ بِلَادِهِمْ ذَاهِبًا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَعَوَّضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ قَوْمِهِ وَ عَشِيرَتِهِ بِأَوْلَادٍ صَالِحِينَ مِنْ صُلْبِهِ عَلَى دِينِهِ لِتَقَرَّ بِهِمْ عَيْنُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى{فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا}[مَرْيَمَ: 49]

وَ قَالَ هَاهُنَا: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلا هَدَيْنَا}85

(وَإِسۡمَٰعِيلَ)بن إبراهيم أبو الشعب الذى هو أفضل الشعوب وهو الشعب العربى ووالد سيد ولد آدم محمد ﷺ

(وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ)بن متى(وَلُوطٗاۚ)بن هاران أخى إبراهيم(وَكُلّٗا)من هؤلاء الأنبياء والمرسلين

(فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ)لأن درجات الفضائل أربع —و هى التى ذكرها الله بقوله:–

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ)

فهؤلاء من الدرجة العليا بل هم أفضل الرسل على الإطلاق فالرسل الذين قصهم الله فى كتابه أفضل ممن لم يقص علينا نبأهم بلا شك86

(وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ)أى:آباء هؤلاء المذكورين

(وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ)أى:و هدينا من آباء هؤلاء و ذرياتهم و إخوانهم.

(وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ)اخترناهم(وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ)87

(ذَٰلِكَ)الهدى المذكور(هُدَى ٱللَّهِ)الذى لا هدى إلا هداه(يَهۡدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ)

فاطلبوا منه الهدى فإنه إن لم يهدكم فلا هادى لكم غيره و ممن شاء هدايته هؤلاء المذكورون.

(وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ)على الفرض و التقدير

(لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)فإن الشرك محبط للعمل موجب للخلود فى النار.

فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار لو أشركوا—و حاشاهم—لحبطت أعمالهم فغيرهم أولى.

*كقوله(وَلَقَدۡ أُوحِىَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ) الزمر: ٦٥ 88

*و هذا شرط و الشرط لا يقتضى جواز الوقوع كقوله(قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ) الزخرف: ٨١

(أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا)

*بالنبوة و يحتمل أن يكون الضمير عائد الى هذه الاشياء الثلاثة:-الكتاب و الحكم و النبوة

(هَٰٓؤُلَآءِ)أى:—أهل مكة وَ غَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ مَنْ عَرَبٍ وَ عَجَمٍ وَ مِلِّيينَ وَ كِتَابِيِّينَ

(فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا)الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارَ وَ أَتْبَاعَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

(لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ)

لَا يَجْحَدُونَ شَيْئًا مِنْهَا وَ لَا يَرُدُّونَ مِنْهَا حَرْفًا وَاحِدًا بَلْ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِهَا مُحْكَمِهَا وَ مُتَشَابِهِهَا جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَ كَرَمِهِ وَ إِحْسَانِه89

(أُوْلَٰٓئِكَ)المذكورون

(ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ)امش—أيها الرسول الكريم—خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار و اتبع ملتهم و قد امتثل ﷺ فاهتدى بهدى الرسل قبله و جمع كل كمال فيهم.

*فاجتمعت لديه فضائل و خصائص فاق بها جميع العالمين و كان سيد المرسلين و إمام المتقين صلوات الله و سلامه عليه و عليهم أجمعين و بهذا الملحظ استدل بهذه من استدل من الصحابة أن رسول الله ﷺأفضل الرسل كلهم.

*البخارى 4632 - عن ابْنَ عَبَّاسٍ: أَفِي ص سَجْدَةٌ؟

فَقَالَ: «نَعَمْ» ثُمَّ تَلاَ:{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} [الأنعام: 84] إِلَى قَوْلِهِ {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: 90]

ثُمَّ قَالَ: «هُوَ مِنْهُمْ»(أى داود عليه السلام هو من الأنبياء المذكورين الذين أمر ﷺبالاقتداء بهم فيقتدى به بالسجود في سجدة (ص) لأنه سجدها)

عَنْ مُجَاهِدٍ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ(أى سألته عن سجدة (ص))فَقَالَ: «نَبِيُّكُمْ ﷺمِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ»

(قُلۡ)للذين أعرضوا عن دعوتك:—

(لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ)أطلب(عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ) منكم مغرما و مالا جزاء عن إبلاغى إياكم و دعوتى لكم فيكون من أسباب امتناعكم إن أجرى إلا على الله

(إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ)يتذكرون به:-

1-ما ينفعهم فيفعلونه و ما يضرهم فيذرونه

2-و يتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه و أوصافه.

3-و يتذكرون به الأخلاق الحميدة و الطرق الموصلة إليها و الأخلاق الرذيلة و الطرق المفضية إليها

فإذا كان ذكرى للعالمين كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم فعليهم قبولها و الشكر عليها90

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ
تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ
﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ
وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ
بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ
لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

(وَمَا قَدَرُواْ)عَظَّمُوا(ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ)تَعْظِيمِهِ

(إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ)إِذْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ إِلَيْهِمْ قُرَيْشٌ-وَ الْعَرَبُ قَاطِبَةً-كَانُوا يُبْعِدُونَ إِرْسَالَ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ

كما قَالَ {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ[يُونُس: 2]

وَ قَالَ{وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولا94 قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولا} [الإِسْرَاء]

❍هذا تشنيع على من نفى الرسالة من اليهود و المشركين و زعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء

فمن قال هذا فما قدر الله حق قدره و لا عَظَّمه حق عظمته إذ هذا قدح فى حكمته

و زعم أنه يترك عباده هملا لا يأمرهم و لا ينهاهم و نَفْيٌ لأعظم منة امتن الله بها على عباده و هى الرسالة التى لا طريق للعباد إلى نيل السعادة و الكرامة و الفلاح إلا بها فأى قدح فى الله أعظم من هذا؟

(قُلْ)لهم – ملزما بفساد قولهم و قرِّرْهم بما به يقرون:–

(مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ)أى:التوراة العظيمة (ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ)

مواجهة و تهديد المشركين 91-144

الرد على اليهود و المشركين و عقابهم و بعض مظاهر قدرة الله 91-103

(نُورًا)فى ظلمات الجهل من الضلالة

(وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ)إلى الصراط المستقيم علما و عملا وهو الكتاب الذى شاع و ذاع وملأ ذكره القلوب و الأسماع

(تَجْعَلُونَهُۥ)أى:جعلوا يتناسخونه فى القراطيس

(قَرَاطِيسَ)قِطَعًا يَكْتُبُونَهَا مِنَ الْكِتَابِ الْأَصْلِيِّ الَّذِى بِأَيْدِيهِمْ وَ يُحَرِّفُونَ فِيهَا مَا يُحَرِّفُونَ وَ يُبَدِّلُونَ وَ يَتَأَوَّلُونَ و يتصرفون فيه بما شاءوا

(تُبْدُونَهَا)فما وافق أهواءهم منه أبدوه و أظهروه(وَتُخْفُونَ كَثِيرًا)و ما خالف ذلك أخفوه و كتموه و ذلك كثير.

(وَعُلِّمْتُم)من العلوم التى بسبب ذلك الكتاب الجليل (مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ)

*فإذا سألتهم عمن أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات فأجب عن هذا السؤال.

و(قُلِ ٱللَّهُ)الذى أنزله فحينئذ يتضح الحق و ينجلى مثل الشمس و تقوم عليهم الحجة ثم إذا ألزمتهم بهذا الإلزام

(ثُمَّ ذَرْهُمْ)اتركهم(فِى خَوْضِهِمْ)باطلهم (يَلْعَبُونَ)بما لا فائدة فيه حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون91

(وَهَٰذَا كِتَٰبٌ)القرآن الذى(أَنزَلْنَٰهُ)إليك

(مُبَارَكٌ)وَصْفُه البركة و ذلك لكثرة خيراته و سعة مبراته.

(مُّصَدِّقُ)موافق(ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ)للكتب السابقة و شاهد لها بالصدق.

و أنزلناه أيضا(وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ)مكة المكرمة

(وَمَنْ حَوْلَهَا)من ديار العرب بل و من سائر البلدان فتحذر الناس عقوبة الله و أخذه الأمم و تحذرهم مما يوجب ذلك كقوله(قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)الأعراف: ١٥٨

*البخارى335 عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺأَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:-أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي:-

1-نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ(هو الخوف يقذف في قلوب أعدائ) مَسِيرَةَ شَهْرٍ(أى بينى وبينه مسيرة شهر)

2-وَ جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَ طَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ

3-وَ أُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ(جمع مغنم وهو الغنيمة وهو كل ما يحصل عليه المسلمون من الكفار قهرا)وَ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي

4-وَ أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ

5-وَ كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَ بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً

(وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ)لأن الخوف إذا كان في القلب عمرت أركانه و انقاد لمراضى الله.

(وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

يداومون عليها و يحفظون:-أركانها و حدودها و شروطها و آدابها و مكملاتها جعلنا الله منهم ٩٢

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا)لا أحد أعظم ظلما و لا أكبر جرما ممن كذب على الله بأن :-

1-نسب إلى الله قولا أو حكما و هو تعالى بريء منه و إنما كان هذا أظلم الخلق لأن فيه من الكذب و تغيير الأديان أصولها و فروعها و نسبة ذلك إلى الله – ما هو من أكبر المفاسد.

(أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ)

2-و يدخل في ذلك ادعاء النبوة و أن الله يوحى إليه و هو كاذب في ذلك

فإنه-مع كذبه على الله و جرأته على عظمته و سلطانه-يوجب على الخلق أن :-

1-يتبعوه 2-و يجاهدهم على ذلك 3-و يستحل دماء من خالفه و أموالهم.

و يدخل فى هذه الآية كل من ادعى النبوة كـ:-

مسيلمة الكذاب و الأسود العنسى و المختار و غيرهم ممن اتصف بهذا الوصف.

(وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ)

و من أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر الله عليه و يجارى الله فى أحكامه و يشرع من الشرائع كما شرعه الله.

*و يدخل فى هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن و أنه في إمكانه أن يأتى بمثله.

*و أى ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات الناقص من كل وجه مشاركةَ القوى الغنى الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه في ذاته و أسمائه و صفاته؟

*و لما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة فى حال الاحتضار و يوم القيامة فقال:-

(وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ)شدائد و أهوال(ٱلۡمَوۡتِ)الفظيعة و كُرَبه الشنيعة-

لرأيت أمرا هائلا و حالة لا يقدر الواصف أن يصفها

(وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ)إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب و العذاب يقولون لهم عند منازعة أرواحهم و قلقها و تعصيها للخروج من الأبدان:-

(أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ)الشديد الذى يهينكم و يذلكم و الجزاء من جنس العمل

فإن هذا العذاب(بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ)من كذبكم عليه و ردكم للحق الذى جاءت به الرسل.

(وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ)تَرَفَّعون عن الانقياد لها و الاستسلام لأحكامها.

*و في هذا دليل على عذاب البرزخ و نعيمه فإن هذا الخطاب و العذاب الموجه إليهم إنما هو عند الاحتضار و قبيل الموت و بعده.

*و فيه دليل على أن الروح جسم يدخل و يخرج و يخاطب و يساكن الجسد و يفارقه فهذه حالهم فى البرزخ.

*و أما يوم القيامة فإنهم إذا وردوها وردوها مفلسين فرادى بلا أهل و لا مال و لا أولاد و لا جنود و لا أنصار كما خلقهم الله أول مرة عارين من كل شيء.

فإن الأشياء إنما تتمول و تحصل بعد ذلك بأسبابها التى هى أسبابها

و في ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور التى كانت مع العبد في الدنيا سوى العمل الصالح و العمل السيء الذى هو مادة الدار الآخرة الذى تنشأ عنه و يكون حسنها و قبحها و سرورها و غمومها و عذابها و نعيمها بحسب الأعمال.

فهي التي تنفع أو تضر و تسوء أو تسر و ما سواها من الأهل و الولد و المال و الأنصار فعوارى خارجية و أوصاف زائلة و أحوال حائلة 93

و لهذا قال(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ)أعطيناكم و أنعمنا به عليكم (وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ)لا يغنون عنكم شيئا

*مسلم3 - (2958) عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺوَ هُوَ يَقْرَأُ:-أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ قَالَ:-
يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِى مَالِى قَالَ: وَ هَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا:-
1-مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ 2-أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ 3-أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟

(وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ)

فإن المشركين يشركون بالله و يعبدون معه الملائكة و الأنبياء و الصالحين و غيرهم و هم كلهم لله و لكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيبا من أنفسهم و شركة في عبادتهم و هذا زعم منهم و ظلم فإن الجميع عبيد لله و الله مالكهم و المستحق لعبادتهم.

فشركهم في العبادة و صرفها لبعض العبيد تنزيل لهم منزلة الخالق المالك فيوبخون يوم القيامة و يقال لهم هذه المقالة.

(وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ)

أى: تقطعت الوصل و الأسباب بينكم و بين شركائكم من الشفاعة و غيرها فلم تنفع و لم تُجْد شيئا.

(وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)من الربح و الأمن و السعادة و النجاة التى زينها لكم الشيطان و حسنها فى قلوبكم فنطقت بها ألسنتكم و اغتررتم بهذا الزعم الباطل الذى لا حقيقة له حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون و ظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم و أهليكم و أموالكم94

توسط مكة للأرض الرابط

بحث: أ.د/ يحيى حسن وزيرى (اثبات توسط مكة لليابسة بالقياسات و صور الأقمار الصناعية)
استخدمت فى بحثى لاثبات توسط مكة المكرمة لليابسة على برنامجين يعتمدان على صور الأقمار الصناعية الحقيقية للكرة الأرضية و هما:

أ- جوجل ايرث Google Earth:-
وهو برنامج معروف بامكانياته العالية لتحديد المسافات بين أى نقطتين على سطح الكرة الأرضية بدقة متناهية.
ب- Qibla locator: و هو برنامج مصمم خصيصا لتحديد اتجاه القبلة بدقة متناهية من أى نقطة على سطح الكرة

الأرضية كما يحدد المسافة بين أى نقطة على الكرة الأرضية و مكة المكرمة (القبلة) بدقة متناهية أيضا.

3-1 توسط مكة للعالم القديم (أفريقيا وأوروبا):-

نقاط القياس: جنوب أفريقيا والساحل الغربى لأفريقيا وجزيرة أيسلندا.

المسافة المتوسطة بين مكة وأبعد النقاط فى أفريقيا و أوروبا هى 6511 كم.

3-2 توسط مكة المكرمة لحدود العالم الجديد القريبة :

* نقاط القياس: الحدود القريبة لاستراليا والقارة الجنوبية والأمريكتين ومضيق برنج واليابان.

المسافة المتوسطة بين مكة وتلك النقاط هى 9320 كم.

3-3 توسط مكة المكرمة لحدود العالم الجديد البعيدة:

* نقاط القياس: الحدود البعيدة لاستراليا والقارة الجنوبية والأمريكتين.

المسافة المتوسطة بين مكة وتلك النقاط هى 13269 كم.

3-4 توسط مكة المكرمة للمراكز الجغرافية قارات العالم الجديد:

يقصد بالمركز الجغرافى لكل قارة بأنه النقطة التى تتوسط القارة من حيث المساحة.

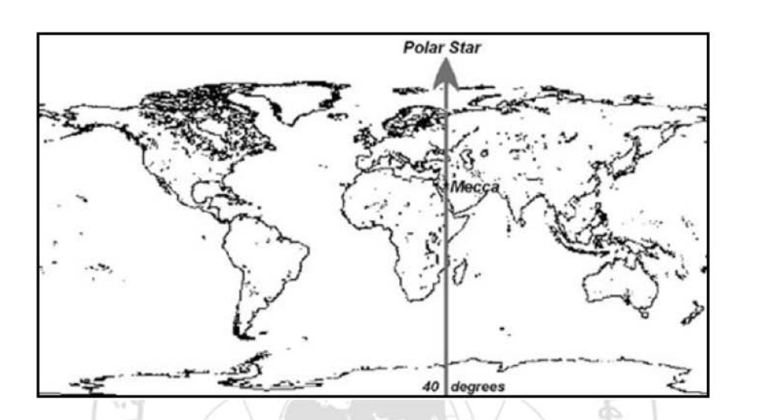
المسافة المتوسطة بين مكة وتلك النقاط هى 11494 كم.

رابعا: شهادة عالم غربى:

طالب البروفيسور"أرنولد كيسرلنج" الأستاذ السابق بجامعة فيينا أن يكون خط طول مكة هو خط التوقيت العالمى بدلا من جرينتش انظر الموقع الأليكترونى التالى:-(www.chanceandchoice.com)

• الخلاصة:

تعتبر مكة المكرمة بمثابة مركز لأربعة دوائر كل واحدة منها تمر بحد معين من حدود اليابسة وكذلك المراكز الجغرافية لقارات العالم الجديد وهو مايوضح الحكمة الالهية من اختيارها لتكون قبلة ومكان حج الأمة الاسلامية كما يوضح اعجاز القرآن الكريم فى وصفها باسم "أم القرى".



شكل (١٠): الخريطة التي رسمها البروفيسور «أرنولد كيسرلنج» وعليها الخط الذي يمر بموقع مكة مشيرا للنجم القطبي، دلالة على توسط مكة المكرمة لليابسة.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾
فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾
وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾
وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾
وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ
حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ
مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾
وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾
بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾

يخبر تعالى عن كماله و عظمة سلطانه و قوة اقتداره و سعة رحمته و عموم كرمه و شدة عنايته بخلقه فقال:–

(إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ)

شامل لسائر الحبوب التى يباشر الناس زرعها و التى لا يباشرونها كالحبوب التى يبثها الله فى البرارى و القفار *فيفلق الحبوب عن الزروع و النوابت على اختلاف أنواعها و أشكالها و منافعها و يفلق النوى عن الأشجار من النخيل و الفواكه و غير ذلك. فينتفع الخلق من الآدميين و الأنعام و الدواب و يرتعون فيما فلق الله من الحب و النوى و يقتاتون و ينتفعون بجميع أنواع المنافع التى جعلها الله في ذلك و يريهم الله من بره و إحسانه ما يبهر العقول و يذهل الفحول و يريهم من بدائع صنعته و كمال حكمته ما به يعرفونه و يوحدونه و يعلمون أنه هو الحق و أن عبادة ما سواه باطلة.

(يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ)كما يخرج من المنى حيوانا و من البيضة فرخا و من الحب و النوى زرعا و شجرا.

(وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ)و هو الذي لا نمو فيه أو لا روح

(مِنَ ٱلۡحَيِّۚ)كما يخرج من الأشجار و الزروع النوى و الحب و يخرج من الطائر بيضا و يخرج الولد الصالح من الفاجر و العكس

(ذَٰلِكُمُ)الذى فعل ما فعل و انفرد بخلق هذه الأشياء و تدبيرها

(ٱللَّهُ)رَبُّكُمۡ أى:الذى له الألوهية و العبادة على خلقه أجمعين و هو الذى ربى جميع العالمين بنعمه و غذاهم بكرمه

(فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ)تصرفون و تصدون عن عبادة من هذا شأنه إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا؟ 95

*و لما ذكر تعالى مادة خلق الأقوات ذكر منته بتهيئة المساكن و خلقه كل ما يحتاج إليه العباد من الضياء و الظلمة و ما يترتب على ذلك من أنواع المنافع و المصالح نبه على أنه فالق الحب و النوى كذلك هو(فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ)

فالق ظلمة الليل الداجى الشامل لما على وجه الأرض بضياء الصبح الذى يفلقه شيئا فشيئا حتى تذهب ظلمة الليل كلها و يخلفها الضياء و النور العام الذى يتصرف به الخلق فى مصالحهم و معايشهم و منافع دينهم و دنياهم.

*الكون أصله فى ظلمة و طبقة النهار فى الارض لا تتعدى 200 كم و بعدها نرى ظلام :د /زغلول النجار

*و لما كان الخلق محتاجين إلى السكون و الاستقرار و الراحة التى لا تتم بوجود النهار و النور (وَجَعَلَ)الله(ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا)يسكن فيه الآدميون إلى دورهم و منامهم و الأنعام إلى مأواها و الطيور إلى أوكارها فتأخذ نصيبها من الراحة

*ثم يزيل الله ذلك بالضياء و هكذا أبدا إلى يوم القيامة

*كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ:{وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَفْلِقُ ظَلَامَ اللَّيْلِ عَنْ غُرَّةِ الصَّبَاحِ فَيُضِيءُ الْوُجُودَ وَ يَسْتَنِيرُ الْأُفُقُ وَ يَضْمَحِلُّ الظَّلَامُ وَيَذْهَبُ اللَّيْلُ بِدَآدِيهِ وَ ظَلَامِ رِوَاقِهِ وَ يَجِيءُ النَّهَارُ بِضِيَائِهِ وَ إِشْرَاقِهِ

كَمَا قَالَ تَعَالَى {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [الْأَعْرَافِ: 54]

فَبَيَّنَ تَعَالَى قُدْرَتَهُ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَ عَظِيمِ سُلْطَانِهِ فَذَكَرَ أَنَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَ قَابَلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: {وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا}أَيْ: سَاجِيًا مُظْلِمًا تَسْكُنُ فِيهِ الْأَشْيَاءُ

كَمَا قَالَ: {وَالضُّحَى 1وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}[الضُّحَى] وَ قَالَ{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى 1 وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [اللَّيْلِ]

وَ قَالَ{وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا 1 وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [الشَّمْسِ]

(و) جعل تعالى(وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ)أَيْ: يَجْرِيَانِ بِحِسَابٍ مُقَنَّنٍ مُقَدَّرٍ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَضْطَرِبُ بَلْ كُلٌّ مِنْهُمَا لَهُ مَنَازِلُ يَسْلُكُهَا فِي الصَّيْفِ وَ الشِّتَاءِ فَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ طُولًا وَ قِصَرًا

كَمَا قَالَ تَعَالَى {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [يُونُسَ: 5]

وَ كَمَا قَالَ: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: 40]

وَ قَالَ {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ} [الْأَعْرَافِ: 54]

*بهما تعرف الأزمنة و الأوقات فتنضبط بذلك أوقات العبادات و آجال المعاملات و يعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التى لولا وجود الشمس و القمر و تناوبهما و اختلافهما–لما عرف ذلك عامة الناس و اشتركوا في علمه بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد و بذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

(ذَٰلِكَ)التقدير المذكور(تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ)الذى من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة فجرت مذللة مسخرة بأمره بحيث لا تتعدى ما حده الله لها و لا تتقدم عنه و لا تتأخر

(ٱلۡعَلِيمِ)الذى أحاط علمه بالظواهر و البواطن و الأوائل و الأواخر.

و من الأدلة العقلية على إحاطة علمه تسخير هذه المخلوقات العظيمة على تقدير و نظام بديع تحيُّرُ العقول فى حسنه و كماله و موافقته للمصالح و الحكم96

(وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ)

حين تشتبه عليكم المسالك و يتحير فى سيره السالك فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل التى يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم و تجاراتهم و أسفارهم.

1– نجوم لا تزال ترى و لا تسير عن محلها

2– ما هو مستمر السير يعرف سيرَه أهل المعرفة بذلك و يعرفون به الجهات و الأوقات.

و دلت هذه الآية و نحوها على:–

مشروعية تعلم سير الكواكب و محالّها الذى يسمى علم التسيير فإنه لا تتم الهداية و لا تمكن إلا بذلك.

*قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:-مَنِ اعْتَقَدَ فِي هَذِهِ النُّجُومِ غَيْرَ ثَلَاثٍ فَقَدْ أَخْطَأَ وَ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ:-

1-أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ 2-وَ رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ 3-وَ يُهْتَدى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ.

(قَدۡ فَصَّلۡنَا)بينًّا(ٱلۡأٓيَٰتِ)و وضحناها و ميزنا كل جنس و نوع منها عن الآخر بحيث صارت آياته بادية ظاهرة

(لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ)لأهل العلم و المعرفة فإنهم الذين يُوَّجه إليهم الخطاب و يطلب منهم الجواب

بخلاف أهل الجهل و الجفاء المعرضين عن آيات الله و عن العلم الذي جاءت به الرسل فإن البيان لا يفيدهم شيئا و التفصيل لا يزيل عنهم ملتبسا و الإيضاح لا يكشف لهم مشكلا97

(وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ)آدم ﷺ أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمى كَمَا قَالَ:-

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً}[النِّسَاءِ: 1] .

*الذى قد ملأ الأرض و لم يزل فى زيادة و نمو الذى قد تفاوت فى أخلاقه و خلقه و أوصافه تفاوتا لا يمكن ضبطه و لا يدرك وصفه

(فَمُسۡتَقَرٌّ)فِي الْأَرْحَامِ و قيل: فَمُسْتَقَرٌّ فِي الدنيا

(وَمُسۡتَوۡدَعٌ)فِي الْأَصْلَابِ.و قيل: وَ مُسْتَوْدَعٌ حَيْثُ يَمُوتُ.

*جعل الله لهم مستقرا أى منتهى ينتهون إليه و غاية يساقون إليها و هى دار القرار التى لا مستقر وراءها

و لا نهاية فوقها فهذه الدار هى التى خلق الخلق لسكناها و أوجدوا فى الدنيا ليسعوا في أسبابها التى تنشأ عليها و تعمر بها و أودعهم الله فى أصلاب آبائهم و أرحام أمهاتهم ثم في دار الدنيا ثم فى البرزخ كل ذلك على وجه الوديعة التى لا تستقر و لا تثبت بل ينتقل منها حتى يوصل إلى الدار التي هي المستقر

و أما هذه الدار فإنها مستودع و ممر

(قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)يفهمون عن الله آياته و حججه و بيناته98

(وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) كما قَالَ{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأَنبِيَاء: 30]

*و هذا من أعظم مننه العظيمة التي يضطر إليها الخلق من الآدميين و غيرهم و هو أنه أنزل من السماء ماء متتابعا وقت حاجة الناس إليه فأنبت الله به كل شيء مما يأكل الناس و الأنعام

فرتع الخلق بفضل الله و انبسطوا برزقه و فرحوا بإحسانه

و زال عنهم الجدب و اليأس و القحط ففرحت القلوب و أسفرت الوجوه و حصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم ما به يتمتعون و به يرتعون مما يوجب لهم أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم

و عبادته و الإنابة إليه والمحبة له.

و لما ذكر عموم ما ينبت بالماء من أنواع الأشجار و النبات ذكر الزرع و النخل لكثرة نفعهما و كونهما قوتا لأكثر الناس فقال:-

(فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ)أى:من ذلك النبات الخضر

(حَبًّا مُّتَرَاكِبًا)بعضه فوق بعض من بر و شعير و ذرة و أرز و غير ذلك من أصناف الزروع

و في وصفه بأنه متراكب:-

1-إشارة إلى أن حبوبه متعددة و جميعها تستمد من مادة واحدة و هى لا تختلط بل هى متفرقة الحبوب مجتمعة الأصول

2-و إشارة أيضا إلى كثرتها و شمول ريعها و غلتها ليبقى أصل البذر و يبقى بقية كثيرة للأكل و الادخار.

(وَمِنَ ٱلنَّخْلِ)أخرج الله(مِن طَلْعِهَا)و هو الكفرى و الوعاء قبل ظهور القنو منه فيخرج من ذلك الوعاء

(قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ)قِصَارَ النَّخْلِ اللَّاصِقَةِ عُذُوقُهَا بِالْأَرْضِ متدلية على من أرادها بحيث لا يعسر التناول من النخل و إن طالت فإنه يوجد فيها كرب و مراقى يسهل صعودها.

(و)أخرج تعالى بالماء(وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ)

فهذه من الأشجار الكثيرة النفع العظيمة الوقع فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار و النوابت.

*كَمَا امْتَنَّ بِهِمَا عَلَى عِبَادِهِ فِى قوله{وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا}[النَّحل67]
وَ كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ.وَ قَالَ:{وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} [يس: 34]

(مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ)يحتمل أن يرجع إلى الرمان و الزيتون أى مشتبها فى شجره و ورقه غير متشابه فى ثمره شكلا و طعما و طبعا

*و يحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار و الفواكه و أن بعضها مشتبه يشبه بعضه بعضا و يتقارب فى بعض أوصافه و بعضها لا مشابهة بينه و بين غيره

و الكل ينتفع به العباد و يتفكهون و يقتاتون و يعتبرون و لهذا أمر تعالى بالاعتبار به فقال:-

(ٱنظُرُوٓاْ)نظر فكر و اعتبار

(إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ)الأشجار كلها خصوصا:-النخل

و انظروا إليه(إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ)وقت إطلاعه و وقت نضجه و إيناعه

فإن فى ذلك عبرا و آيات يستدل بها على رحمة الله و سعة إحسانه و جوده و كمال اقتداره و عنايته بعباده.

*و لكن ليس كل أحد يعتبر و يتفكر و ليس كل من تفكر أدرك المعنى المقصود

و لهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال:-(إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ)

*فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان على العمل بمقتضياته و لوازمه التى منها:-

1-التفكر فى آيات الله 2-و الاستنتاج منها ما يراد منها و ما تدل عليه عقلا و فطرة و شرعا ٩٩

(وَجَعَلُواْ لِلَّهِ)أى:-هؤلاء المشركون(شُرَكَآءَ)لله فى العبادة و هم(ٱلۡجِنَّ)اعتقادًا منهم أنهم ينفعون أو يضرون

(و)قد(وَخَلَقَهُمۡۖ)الله تعالى و ما يعبدون من العدم

فهو المستقل بالخلق وحده فيجب أن يستقل بالعبادة وحده لا شريك له

*كقول ابراهيم(قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ)الصافات

يخبر تعالى: أنه مع إحسانه لعباده و تعرفه إليهم بآياته البينات و حججه الواضحات-أن المشركين به من قريش و غيرهم جعلوا له شركاء يدعونهم و يعبدونهم من الجن و الملائكة الذين هم خلق من خلق الله ليس فيهم من خصائص الربوبية و الألوهية شيء فجعلوها شركاء لمن له الخلق و الأمر و هو المنعم بسائر أصناف النعم الدافع لجميع النقم

(وَخَرَقُواْ)ائتفك المشركون و افتروا من تلقاء أنفسهم لله(لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ)منهم
*بحقيقة ما يقولون و لكن جهلا بالله و بعظمته وَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي إِنْ كَانَ إِلَهًا أَنْ يَكُونَ لَهُ بَنُونَ وَ بَنَاتٌ وَ لَا صَاحِبَةٌ وَ لَا أَنْ يُشْرِكَهُ فِي خَلْقِهِ شَرِيكٌ.
*و من أظلم ممن قال على الله بلا علم و افترى عليه أشنع النقص الذى يجب تنزيه الله عنه؟!!.

*يُنَبِّهُ بِهِ تَعَالَى عَلَى ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ فِي وَصْفِهِ تَعَالَى بِأَنَّ لَهُ وَلَدًا كَمَا يَزْعُمُ مَنْ قَالَهُ مِنَ:-
1-الْيَهُودِ فِي الْعُزَيْرِ 2-وَ مَنْ قَالَ مِنَ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ 3-وَ كَمَا قَالَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْعَرَبِ فِي الْمَلَائِكَةِ:
إِنَّهَا بَنَاتُ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً.*و لهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال:-

(سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ)فإنه تعالى الموصوف بكل كمال المنزه عن كل نقص و آفة و عيب(١٠٠)

(بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)خالقهما و متقن صنعتهما على غير مثال سبق بأحسن:-خلق و نظام و بهاء
لا تقترح عقول أولى الألباب مثله و ليس له في خلقهما مشارك.

(أَنَّىٰ)كيف(يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ)و هو الإله السيد الصمد

(وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ)زوجة و هو الغنى عن مخلوقاته و كلها فقيرة إليه
مضطرة فى جميع أحوالها إليه و الولد لا بد أن يكون من جنس والده

و الله(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ)و ليس شيء من المخلوقات مشابها لله بوجه من الوجوه.
*و لما ذكر عموم خلقه للأشياء ذكر إحاطة علمه بها فقال:-

(وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)و فى ذكر العلم بعد الخلق إشارة إلى الدليل العقلى إلى ثبوت علمه
و هو هذه المخلوقات و ما اشتملت عليه من النظام التام و الخلق الباهر فإن فى ذلك دلالة على:-
1-سعة علم الخالق 2-و كمال حكمته
كما قال تعالى:(أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)و كما قال تعالى: (وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ)
ذلكم الذى خلق ما خلق و قدر ما قدر(١٠١)

(89) إن الله فالق الحب و النوى...بقلم الدكتور: زغلول النجار الرابط

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

للبذور النباتية اسمان متمايزان أولهما(الحب) و ثانيهما(النوى)
ويعبر بلفظة(الحب) أو(الحبوب) عن البذور المستخدمة كمحاصيل غذائية أساسية للإنسان من مثل
حبوب القمح(الحنطة)و الشعير و الذرة و الشوفان و كلها من بذور النباتات الوعائية المزهرة ذات البذور
المكونة من فلقة واحدة
*أما البذور ذات الفلقتين فيطلق عليها اسم(البذور) من مثل بذور العائلة القرنية التي منها الفول
والحمص البازلاء الفاصوليا اللوبيا العدس الترمس فول الصويا الفول السودانى الحلبة البامية
كما قد تطلق على البذور التي لا يأكلها الإنسان من مثل بذور البرسيم والقطن وغيرها.
*أما البذور التي لها قدر من الصلابة فيطلق عليها اسم النوي(و مفردها نواة) كما قد تجمع علي أنواء
وذلك مثل نواة كل من البلح و المشمش و البرقوق و الخوخ و الزيتون و غيرها و اللفظة تذكر و تؤنث
وقد وردت في القرآن الكريم مرة واحدة.
و أيا كانت طبيعة غلاف أو اغلفة البذرة رقيقة هشة أو سميكة خشبية أو قرنية صلبة فإن الله قد اعطى
للجنين الكامن بداخلها القدرة علي شقها و فلقها بمجرد توافر الشروط اللازمة لإنباته

و ذلك من أجل تيسير خروج النبتة الجنينية النامية من داخل البذرة في عملية معجزة تعرف باسم عملية [إنبات البذور]التي تتكاثر بها معظم النباتات الراقية.
و النباتات البذرية التي منها معظم طعوم و احتياجات الناس تضم أكثر من ربع مليون نوع من أنواع النباتات الراقية علي اختلاف أوضاعها التصنيفية و يمثل كل نوع منها بعشرة أصناف في المتوسط على أقل تقدير و يمثل الصنف الواحد بأعداد لاتحصى من الأفراد
و يستمر كل فرد من هذه الأفراد فى التكاثر عن طريق انتشار أو استنبات بذوره إلي ما شاء الله.
و قد يطلق علي كل المحاصيل المستخدمة كمواد غذائية أساسية للانسان اسم(الغلة)و جمعها(الغلال) بمعني ما تغله الأرض و إن كانت لم ترد هذه اللفظة في القرآن الكريم..
*و أصل كلمة(الحبة) مستمد من قلب كل شئ أو ثمرته فحبة القلب سويداؤه وحبة النبات ثمرته و(الحبة) و(الحب) بكسر الحاء تقال لبذور نباتات الصحراء مما ليس بقوت للإنسان من مثل بذور الأعشاب و الرياحين و الحشائش استنادا إلي ما جاء بالحديث:-(فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل) وجاء ذكر كلمة(حبة) فى القرآن الكريم ست مرات في خمس من الآيات.
*<u>ماهية البذور:</u>
البذور فى النباتات الراقية ه ى البويضات المخصبة
و على ذلك فإنها ه ى وسيلة التكاثر فى معظم هذه النباتات لأنها تحوى أجنتها الكامنة فى حالة من السكون المؤقت و الجنين يشغل حيزا ضئيلا جدا من حجم البذرة
أما باقى حجمها فيتكون من مواد غذائية غير حية مكتنزة يحتاج إليها الجنين في مراحل إنباته الأولى حتي يخرج منه المجموع الجذرى متجها إلي أسفل مخترقا التربة(باحثا عن الماء و الغذاء على هيئة الأملاح المذابة في هذا الماء أو من عناصر و مركبات التربة بطرائق مباشرة أو غير مباشرة)
و حتي يندفع المجموع الخضرى من الجنين إلى أعلى باحثا عن كل من الهواء و أشعة الشمس و بمجرد تكون الأوراق الخضراء يبدأ النبات فى تصنيع الغذاء اللازم لنموه ولبناء جميع خلاياه و انسجته و ازهاره و ثماره بواسطة عملية التمثيل الضوئى.
و يغلف البذرة بما فيها من الجنين والمواد الغذائية المكتزة عدد من الأغلفة اللازمة لحمايتها من المؤثرات الخارجية
و من أهم هذه الأغلفة مايعرف باسم(القصرة) وهي تتكون من أغلفة البويضة بعد عملية الإخصاب مباشرة كما يتكون غلاف الثمرة من جدار المبيض فور إتمام عملية الإخصاب.
و عندما يتم نضج البذرة فإنها تجف
و يبقى الجنين الحي بداخلها فى حالة من السكون المؤقت حتي تتهيأ له الظروف المناسبة للإنبات.
و يتفاوت طول الفترة التي تمر بين نضج البذرة وصلاحيتها للإنبات تفاوتا كبيرا
ففي بعض الحالات تكون البذور صالحة للإنبات بمجرد انطلاقها من الثمرة أو إخراجها من داخلها
و مثل هذه البذور إذا تعرضت للجفاف فإن الجنين بداخلها قد يفقد شيئا من حيويته أو يموت
و في بعض النباتات الأخري قد يظـل الجنين محتفظا بحيويته في داخل البذرة(أو الحبة أو النواة)لسنوات عديدة كما هو الحال فى العائلة القرنية و نوي العديد من الثمار مثل نوى نخيل البلح.
و تتباين بذور النباتات في عدد أغلفتها وفي شكل وطبيعة تلك الأغلفة و فى حجم وشكل الجنين
و في طبيعة خزن المواد الغذائية المصاحبة للجنين إما فى نسيج خاص يعرف باسم الإندوسبرم(Endosperm) أو في فلقة واحدة أو فلقتين أو أكثر و هذا الغذاء المختزن إما أن يكون نشويا دقيقيا

أو قرنيا صلبا كما هو الحال في حبة الذرة أو يكون سيليولوزيا صلبا كما هو الحال فى نواة ثمرة نخيل البلح.

فلق الحب و النوى(أو إنبات البذور)

تقوم أغلفة البذور بحمايتها من المؤثرات الخارجيةو هذه الاغلفة غالبا ما تكون مميزة و تعرف باسم القصرة و لكنها في بعض الأحوال قد تلتحم بجدار البذرة حتي لايمكن تمييزها.

و قد هيأ الخالق العظيم للجنين في داخل البذرة قدرا من الاتصال المحدود بالعالم الخارجى عن طريق ندبة دائرية دقيقة جدا تعرف باسم السرة و تمثل مكان ارتباط البذرة بالحبل السرى

و يوجد تحت السرة ثقب أدق منها كثيرا يعرف باسم النقير و تغطى هاتان الفتحتان بنسيج اسفنجى يعرف باسم البسباسة له قدرة علي امتصاص الماء و قد تكون هاتان الفتحتان علي هيئة شقين طوليين دقيقين فيعرفان باسم القلم و الكوز. و هذه الفتحات ه ى مدخل الأوكسجين إلي الجنين و مدخل معظم الماء الذى تمتصه البذرة وقت إنباتها.

و الجنين الكامن في داخل البذرة يتكون من ثلاثة اجزاء رئيسية ه ى:-

(1) الريشة و تعطى المجموع الخضرى بعد نموها

(2) الجذير و يعطى المجموع الجذرى بعد نموه

(3) السويقة و تعطى الساق بعد نموها

و يحيط بالجنين مخزون من المواد الغذائية فى نسيج خاص يعرف باسم الإندوسبرم أو فى فلقة واحدة أو فى فلقتين أو أكثر و هذه المواد الغذائية المختزنة في داخل بذور النباتات تتكون من المواد الكربوهيدراتية و البروتينية و الدهون بنسب تتفاوت بتفاوت نوع النبات.

فمن النباتات مغطاة البذور ذوات الفلقة الواحدة نبات الذرة

و من ذوات الفلقتين نبات الفول

و من النباتات عديدة الفلقات الصنوبر و هو من النباتات معراة البذور.

و قد تبقى الفلقة أو الفلقتان أو الفلقات تحت سطح التربة و قد ترتفع أو ترتفعان فوق سطح الأرض و تلعب أو تلعبان دور أوراق أولية تعرف باسم الأوراق الفلقية.

من شروط إنبات البذور:-

بعد فترة السكون التى عاشها الجنين في داخل البذرة الجافة فإن البذرة لكي تنبت و تتحول بالتدريج إلى بادرة ثم إلى النبات الكامل فإنها تحتاج إلي توافر عدد من الشروط الداخلية و الخارجية

و الشروط الداخلية تتعلق بالبذرة ذاتها:-

1- حيوية الجنين

2-و نضج البذرة و سلامتها من التسوس و العفن

3-ومن سمات نضج البذرة تخلصها من المواد الكابحة للنمو و المثبطة له من مثل الحمض الأبسيسى (AbscisicAcid) و الذي يتخلق في بعض البذور ليساعد الجنين على السكون و الكمون فى داخل البذرة و يضمن سباته حتى تتوافر له الظروف المناسبة لإنباته.

و كثير من البذور يتوقف إنباتها على إزالة تلك المواد المثبطة للنمو و يتم ذلك بواسطة الضوء و الحرارة أو بإفراز مواد مضادة للمواد المثبطة بواسطة الجنين ذاته فى داخل البذرة

4- توافر الإمكانية لامتصاص البذرة للقدر الكافي من كل من الماء و الأكسجين عن طريق فتحات دقيقة هيأها الخالق فى جسم البذرة من مثل السرة والنقير أو القلم و الكوز خاصة أن بعض أنواع البذور مغطاة

بطبقة خارجية صلبة قد تحول دون وصول القدر الكافي من الماء و الأكسجين إلي الجنين إلا بعد أن تمر تلك الطبقة الخارجية للبذرة بسلسلة من النشاطات الطبيعية أو الكيميائية أو الميكروبية التى تعين على تمزيقها و مثل هذه البذور قد يصعب استنباتها إلا بعد خدش غطائها الخارجى أو غسلها و نقعها فى الماء لفترة محددة أو تعريضها للضوء أو لدرجات الحرارة المنخفضة

(حوالى خمس درجات مئوية لمدة تتراوح بين أربعة و ستة أسابيع)

و ذلك لأن كلا من الضوء و الحرارة المنخفضة يعمل على تنشيط الجنين فى داخل البذرة و مساعدته على الإنبات

أما عن الشروط الخارجية:-

1-فأولها توافر الماء بالمواصفات المناسبة لأنه أهم شروط الإنبات و بالقدر الكافى لأن غمر البذور بالماء قد يؤدى إلى إفسادها لمنعه الأكسجين من الوصول إلى الجنين فى داخل البذرة

2-و كذلك توافر القدر الكافى من الأكسجين

3-و توافر درجات الحرارة

4-و الإضاءة المناسبة و ذلك لأن بعض البذور تنشط عملية إنباتها في الضوء بينما البعض الآخر يفضل الظلام.

التغيرات التى تطرأ على البذرة فى أثناء إنباتها

عند توافر كل من الشروط الداخلية والخارجية للإنبات تبدأ البذرة بامتصاص الماء و الانتفاخ لزيادة حجمها و حينئذ تبدأ في داخل البذرة سلسلة معقدة من عمليات البناء و الهدم التي تعين الجنين على التحرك بالنمو بعد فترة السكون التام التي عاشها و هو كامن فى داخل البذرة الجافة

فيبدأ بالإنبات ليعيد دورة حياة النبتة الأم من جديد. وتشمل عملية الإنبات ما يلى:-

(1) امتصاص البذرة للماء و انتفاخها بسبب الامتلاء التدريجى بهذا الماء حتى تبدأ القصرة(غلاف البذرة) في التمزق بسبب ازدياد الضغط عليها من داخل البذرة و بذلك يصل الماء بالقدر الكافي إلي الجنين و إلي كتلة الغذاء المختزنة حوله مما يساعد على تنشيط كتلة الغذاء كيميائيا و علي تنشيط الجنين حيويا.

(2) بدء الجنين فى إفراز عدد من الإنزيمات القادرة على تفتيت و تحلل المواد الغذائية المختزنة حوله فى داخل البذرة إما فى الفلقات أو فى نسيج خاص و ه ى مواد معقدة التركيب و غير قابلة للذوبان فى الماء فتحللها تلك الإنزيمات إلى مواد بسيطة و قابلة للذوبان في الماء حتى يمكن للجنين امتصاصها و العيش عليها أثناء فترات الإنبات الأولى.

و من امثلة هذه الإنزيمات ما يلى:-

1-إنزيم الدياستيز الذى يحول النشا إلى سكر.

2-إنزيم البروتيز الذى يحول البروتينات إلي أحماض أمينية.

3-و إنزيم الليبيز الذى يحول الدهون و الزيوت إلي أحماض دهنية و جلسرين

و يؤدى ذلك إلى تضخم حجم المخزون الغذائى فى داخل البذرة أضعافا كثيرة.

(3)شق التربة:-من أهم عوامل شق التربة انتفاخ البذور نتيجة لامتصاصها كميات مناسبة من الماء لأن ذلك يولد قوة هائلة تعرف باسم قوة الإنبات لايكاد العقل البشرى أن يتصور قدرها لدرجة أننا إذا ملأنا زجاجة بالبذور الجافة و أضفنا إليها قدرا مناسبا من الماء و أحكمنا غلق الزجاجة فإن القوة الناتجة عن إنبات البذور و تضخم حجمها بامتصاص الماء تصبح كافية لتفجير الزجاجة مهما يكن سمك جدارها.

ويعين على شق التربة تعطش المعادن المكونة لها للماء و امتصاصه بكميات كبيرة مما يؤدى إلى زيادة حجمها و ارتفاعها إلى أعلى حتى ترق التربة رقة شديدة ثم تنشق لتفسح طريقا سهلا للسويقة الممتدة إلى أعلي من البذرة النابتة.
و يساعد على تحرك جزيئات التربة إلى أعلى غلبة المعادن الصلصالية عليها و هى على هيئة رقائق صفائحية دقيقة تحتفظ بقدر من الغازات فيما بينها فإذا تخللها الماء حل محل تلك الغازات و دفع بها إلى خارج التربة مما يؤدي إلى انتفاض حبيبات التربة إلى أعلى و اهتزازها بعنف حتى ترق التربة و تنشق.
ويعين علي ذلك ايضا ما تحمله رقائق الصلصال من شحنات كهربية تتنافر مع الشحنات المشابهة علي جزئ الماء ذي القطبية الكهربية المزدوجة الموجبة علي ذرتى الإيدروجين و السالبة على ذرة الأوكسجين.
(4) بدء خلايا الجنين فى الانقسام و النمو حتى يمتد الجذير إلى أسفل ويعمل علي تثبيت النبتة في التربة وبذلك تتصل بمصدر غذائها الطبيعى الذي تقوم بامتصاصه على هيئة العصارة الغذائية المكونة من الماء و ما به من العناصر والمركبات المذابة أو التى يستخرجها المجموع الجذرى مباشرة من مكونات التربة و قد أعطى الخالق كل نبتة من النباتات قدرات اختيارية عالية تختار بها مايناسبها من عناصر ومركبات الأرض اللازمة لنموها.
وبعد تكون المجموع الجذرى ترتفع الريشة مخترقة شقوق التربة لتظهر فوق مستوى سطح الأرض وبذلك تتحول(البذرة النابتة) إلي ما يسمي باسم(البادرة) التى تستطيل بالتدريج لتعطى الساق حاملا الأوراق والبراعم مكونة المجموع الخضرى
و باستمرار مراحل النمو المتتالية تتحول البادرة إلى(النبات الكامل) فتبارك الله أحسن الخالقين.
و فى عملية الإنبات قد تبقى الفلقة أو الفلقتان تحت سطح التربة(محاطة بالقصرة الممزقة) حتى يستنفد ما خزن بها أو بهما من غذاء في تغذية الجنين و ذلك كما يحدث في إنبات بذور البازلاء أو إنبات نوى نخيل البلح وفي المقابل قد تنمو السويقة إلى أعلى حاملة معها الفلقة أو الفلقتين إلي ما فوق سطح التربة ومعهما الريشة وتأخذ الفلقة أو الفلقتان في الاخضرار التدريجى للمشاركة في عملية التمثيل الضوئي لفترة محددة حتى تستطيل الريشة و تظهر عليها الأوراق الخضراء مكونة المجموع الخضرى للنبات الذي يقوم بعملية التمثيل الضوئى وحينئذ تضمر الورقة الفلقية أو الورقتان الفلقيتان و تسقط أو تسقطان بعد استنفاد ما بهما من غذاء.
هذه العمليات المعقدة في فلق الحب و النوى لايقوى عليهما أحد من الخلق و لا يمكن لهما أن تتما بغير توجيه وهداية ربانية و من هنا نسب الحق هاتين العمليتين لذاته العلية تشريفا لهما وتعظيما لشأنهما لأنه بدونهما ما كانت هناك إمكانية للحياة علي الأرض و لذلك قال(إن الله فالق الحب والنوى)(الأنعام:95)

يخرج الحى من الميت الرابط

أرسل لى أحد الإخوة الأفاضل مقالة نشرتها الغارديان (بتاريخ 2008/6/12)حول نوى التمر)عمرها 2000 سنة حيث عثر العلماء على حبات من نوى التمر فى قلعة أحد الملوك القدامى بالأردن و تبين أن عمر هذه الحبات يزيد على 2000 سنة ثم قاموا بزراعتها فأنبتت وهذا ما أثار دهشة العلماء
فكيف يمكن لحبة أن تبقى ألفى سنة ثم تعود إلى الحياة!
و هذا يضيف دليلاً جديداً على إعادة الحياة لهذه البذور بعد أن فقدت أي شكل من أشكال الحياة.
و قد درس العلماء هذه الظاهرة ولا زالت من دون تفسير إذ أن البذرة تحوى بداخلها برامج خاصة تبقيها مستعدة للحياة فى أى لحظة! و يحتار العلماء من الذى وضع هذه البرامج؟

و من أين جاءت هذه القدرة الغريبة على النمو بمجرد وجود الماء؟
و كيف تحتفظ البذرة بكامل قدراتها على النمو لتنبت نفس النبات دائماً أى أن بذرة النخيل لا تنبت إلا شجرة نخيل و بذرة العنب لا تنبت إلا شجرة عنب و هكذا فمن الذى علم هذه البذور
*و من الذى أرشدها لتقوم بعملها دون أدنى خطأ؟ إنه الله تعالى القائل:-
(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)[الروم: 19].
*هذه حبات من التمر عمرها 2000 سنة وجدت فى قلعة الملك هيرود بالقرب من البحر الميت
و لا زالت تحافظ على شكلها رغم هذه المدة الطويلة و هذا ما أثار تساؤلات العلماء:
كيف يمكن لبذور التمر أن تبقى ألفى سنة دون أن تفسد؟!
لقد قام العلماء قبل ثلاث سنوات بزراعة هذه البذور فى تربة مناسبة
مع معالجتها بهرمون يساعد على النمو فأنبتت و أصبح طول النخلة الآن 1.5 متراً
و يؤكد العلماء أن الكثير من أنواع البذور لديها القدرة على البقاء لسنوات طويلة
إذا ما توافرت لها الظروف المناسبة.
ويقول العلماء إن هذه البذور ەى أقدم بذور قابلة للنمو تم اكتشافها حتى الآن فقد وجدوا الكثير من البذور لنباتات أخرى مثل اللوتس عمرها 1300 عام و تم إنباتها فى مختبرات خاصة
و لكن بذور النخيل هذه لديها قدرة غريبة على البقاء فهى شجرة مباركة ولذلك يذكر القرآن هذه الفاكهة يقول تعالى:
(وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ 9 وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ 10 رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)[ق]
تأملوا معى كيف جاء ذكر النخل(وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ) مع ذكر إحياء الأرض بعد موتها (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا)
مع ذكر إخراج الموتى(كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)فكأننا نلمس إشارة إلى قدرة هذه البذور أى بذور النخيل على الحياة.
إن هذه البذور أو أى بذور أخرى بمجرد وصول الماء إليها تبدأ بممارسة مهامها و تبدأ بالانقسامات والنمو وإخراج نبات كامل هذا ما يعجب له العلماء:
فمن أين تأتى تلك القوة التى تفلق و تقسم خلايا النبات وتضاعفها حتى تشكل شجرة كاملة تحوى ملايين الخلايا و قد كانت بالأصل خلية واحدة؟! أليس هو الله تعالى القائل:
(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)[الأنعام: 95].
هناك ملحدون يقولون إذا مات الإنسان و تحلل جسده فكيف يمكن أن تعود له الحياة بعد آلاف السنين؟
إن الله تعالى بقدرته وضع فى هذه البذور الضعيفة القدرة على البقاء و تحمل الظروف الطبيعية الصعبة من درجات حرارة و رطوبة
كذلك وضع فى الأرض التى نظنها ميتة القدرة على إخراج النباتات لتكون شاهداً على قدرة الله على إحياء الموتى
و هذا ما أخبرنا عنه القرآن بقوله
(فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)



ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾
لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ
فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ
وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا
وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ
كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾
وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ
وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

(ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ)أى:–المألوه المعبود الذى يستحق:–

1–نهاية الذل 2–و نهاية الحب الرب الذى ربى جميع الخلق بالنعم و صرف عنهم صنوف النقم.

(لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ)أى:–إذا استقر و ثبت أنه الله الذى لا إله إلا هو

(فَٱعْبُدُوهُ)فاصرفوا له جميع أنواع العبادة و أخلصوها لله و اقصدوا بها وجهه.

فإن هذا هو المقصود من الخلق الذى خُلِقُوا لأجله(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ)

(وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ)جميع الأشياء تحت وكالة الله و تدبيره:–1–خلقا 2–و تدبيرا 3–و تصريفا.

و من المعلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون:–1–استقامته 2–و تمامه 3–و كمال انتظامه

بحسب حال الوكيل عليه و وكالته تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق فإن وكالتهم وكالة نيابة و الوكيل فيها تابع لموكله.

و أما البارى تبارك و تعالى فوكالته من نفسه لنفسه متضمنة:–

1–لكمال العلم 2–و حسن التدبير و الإحسان فيه 3–و العدل

فلا يمكن لأحد أن يستدرك على الله و لا يرى فى خلقه خللا و لا فطورا و لا فى تدبيره نقصا و عيبا.

و من وكالته:–أنه تعالى توكل بـــ:–

1–بيان دينه 2–و حفظه عن المزيلات و المغيرات

3–و أنه تولى حفظ المؤمنين و عصمتهم عما يزيل إيمانهم و دينهم 102

(لَّا تُدۡرِكُهُ)تحيط به(ٱلۡأَبۡصَٰرُ)فى الدنيا لعظمته و جلاله و كماله أى:–

لا الأبصار و إن كانت تراه و تفرح بالنظر إلى وجهه الكريم فنفى الإدراك لا ينفى الرؤية بل يثبتها بالمفهوم.

فإنه إذا نفى الإدراك الذى هو أخص أوصاف الرؤية دل على أن الرؤية ثابتة.

فإنه لو أراد نفى الرؤية لقال«لا تراه الأبصار»و نحو ذلك فعُلِمَ أنه ليس فى الآية حجة لمذهب المعطلة

الذين ينفون رؤية ربهم فى الآخرة بل فيها ما يدل على نقيض قولهم.

(وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ)أى: هو الذى أحاط:–

علمه بالظواهر و البواطن

و سمعه بجميع الأصوات الظاهرة و الخفية

و بصره بجميع المبصرات صغارها و كبارها و لهذا قال:–(وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ)الذى:–

1–لطف علمه و خبرته و دق حتى أدرك السرائر و الخفايا و الخبايا و البواطن

2–و من لطفه أنه يسوق:–

أ–عبده إلى مصالح دينه و يوصلها إليه بالطرق التى لا يشعر بها العبد و لا يسعى فيها

ب–و يوصله إلى السعادة الأبدية و الفلاح السرمدى من حيث لا يحتسب

ج–حتى أنه يقدر عليه الأمور التى يكرهها العبد و يتألم منها و يدعو الله أن يزيلها لعلمه أن دينه أصلح

و أن كماله متوقف عليها فسبحان اللطيف لما يشاء الرحيم بالمؤمنين.

*البخارى3234 عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:-

«مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ(دخل فى أمر عظيم)وَ لَكِنْ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ(هيئته وحقيقته)وَ خَلْقُهُ (خلقته التى خلق عليها)سَادٌّ مَا بَيْنَ الْأُفُقِ»

*فَقَوْلُهُ(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ22 إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)[الْقِيَامَةِ]وَ قَالَ عَنِ الْكَافِرِينَ:-(كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)[الْمُطَفِّفِينَ]

قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ:-فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يُحْجَبُون عَنْهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى.

وَ أَمَّا السُّنَّةُ فَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ غير وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:-

أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللَّهَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي الْعَرَصَاتِ وَ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ جَعَلَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ آمين.

*وَ قَالَ آخَرُونَ:لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ إِثْبَاتِ الرؤية وَ نَفْيِ الْإِدْرَاكِ فَإِنَّ الْإِدْرَاكَ أَخَصُّ مِنَ الرُّؤْيَةِ وَ لَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْى الْأَخَصِّ انْتِفَاءُ الْأَعَمِّ 103

*لما بين تعالى من الآيات البينات و الأدلة الواضحات الدالة على الحق فى جميع المطالب و المقاصد

نَبَّه العباد عليها و أخبر أن هدايتهم و ضدها لأنفسهم فقال:–

(قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ)آيات(مِن رَّبِّكُمۡۖ)تبين الحق و تجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار لِمَا اشتملت عليه من:-
1-فصاحة اللفظ و بيانه و وضوحه
2-و مطابقته للمعانى الجليلة و الحقائق الجميلة لأنها صادرة من الرب الذى ربى خلقه بصنوف نعمه الظاهرة و الباطنة التى من أفضلها و أجلها:-
1-تبيين الآيات 2-و توضيح المشكلات.

(فَمَنۡ أَبۡصَرَ)بتلك الآيات مواقع العبرة و عمل بمقتضاها

(فَلِنَفۡسِهِۦۖ)فإن الله هو الغنى الحميد كقوله(مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ) الإسراء: ١٥

(وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ)بأن بُصِّر فلم يتبصر و زُجِر فلم ينزجر و بُيِّن له الحق فما انقاد له و لا تواضع فإنما عماه مضرته عليه كقوله(فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ) الحج: ٤٦

(وَمَآ أَنَا۠)أى:-الرسول(عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ)أحفظ أعمالكم و أرقبها على الدوام
إنما علىَّ البلاغ المبين و قد أديته و بلغت ما أنزل الله إلىَّ فهذه وظيفتى و ما عدا ذلك فلست موظفا فيه كقوله(فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ)الرعد: ٤٠ ﴿١٠٤﴾

(وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ)نُفَصِّل و نُوَضِّحُ و نُفَسِّر وَ نُبَيِّنُ(ٱلۡأٓيَٰتِ)
فِى هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ بَيَانِ التَّوْحِيدِ وَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ و كذلكَ نوضحها فِى كُلِّ مَوْطِنٍ لِجَهَالَةِ الْجَاهِلِينَ
(وَلِيَقُولُواْ)أى: الْمُشْرِكُونَ وَ الْكَافِرُونَ الْمُكَذِّبُونَ

(دَرَسۡتَ)دَارَسْتَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ قَبْلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ قَارَأْتَهُمْ وَ تَعَلَّمْتَ مِنْهُمْ.
*وَ هَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ كَذِبِهِمْ وَ عِنَادِهِمْ:-

(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا)[الْفُرْقَان](وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ)﴿١٠٥﴾

*يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِﷺوَ لِمَنِ اتَّبع طَرِيقَتَهُ:-(ٱتَّبِعۡ)اقْتَدِ بِهِ وَ اقْتَفِ أَثَرَهُ وَ اعْمَلْ بِهِ

فَإِنَّ (مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ)هُوَ الْحَقُّ الَّذِى لَا مِرْيَةَ فِيهِ

لِأَنَّهُ(لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ)
اعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ وَ احْتَمِلْ أَذَاهُمْ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لَكَ وَ يَنْصُرَكَ وَ يُظْفِرَكَ عَلَيْهِمْ.
وَ اعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ حِكْمَةً فِى إِضْلَالِهِمْ فَإِنَّهُ لَوْ شَاءَ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا و لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴿١٠٦﴾

(وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ)بَلْ لَهُ الْمَشِيئَةُ وَ الْحِكْمَةُ فِيمَا يَشَاؤُهُ وَ يَخْتَارُهُ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْأَلُونَ.

(وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ)حَافِظًا تَحْفَظُ أَعْمَالَهُمْ وَ أَقْوَالَهُمْ

(وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ)مُوَكَّلٍ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ وَ أُمُورِهِمْ (إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ) كَمَا قَالَ

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ21 لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)[الْغَاشِيَة] وَ قَالَ (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) [الرَّعْد:40]١٠٧

(وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)

النهى عن سب آلهة المشركين

ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزا بل مشروعا فى الأصل و هو سب آلهة المشركين التى اتخذت أوثانا و آلهة مع الله التى يُتَّقرب إلى الله بإهانتها و سبها و لكن لما كان هذا السب طريقا إلى سب المشركين لرب العالمين الذى يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل:-عيب و آفة و سب و قدح-نهى الله عن سب آلهة المشركين

(فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ)حتى إنهم ليسبون الله رب العالمين

(عَدۡوَۢا)اعتداءً(بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ)الذى رسخت عظمته فى قلوب الأبرار و الفجار إذا سب المسلمون آلهتهم.

*و فى هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية و هو:-

أن الوسائل تعتبر بالأمور التى توصل إليها و أن وسائل المحرم و لو كانت جائزة تكون محرمة إذا كانت تفضى إلى الشر.

*وَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ -وَ هُوَ تَرْكُ الْمَصْلَحَةِ لِمَفْسَدَةٍ أَرْجَح مِنْهَا -

البخارى5973 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ»قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟
قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَ يَسُبُّ أُمَّهُ»

(كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ)فرأوه حسنا و ذَبُّوا عنه و دافعوا بكل طريق مثل:-

1-حُبَّ أَصْنَامِهِمْ 2-وَ الْمُحَامَاةَ لَهَا وَ الِانْتِصَارَ

كما زَيَّنّ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ عَلَى الضَّلَالِ عَمَلَهُمُ الَّذِى كَانُوا فِيهِ لأنهم يَحْمُون لدينهم ويتعصبون له وَ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ فِيمَا يَشَاؤُهُ وَ يَخْتَارُهُ

(ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ)مَعَادُهُمْ وَ مَصِيرُهُمْ إلى الله يوم القيامة

(فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)يُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَ إِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ

*يعرضون عليه و تعرض أعمالهم فينبئهم بما كانوا يعملون من خير و شر١٠٨

(وَأَقۡسَمُواْ)أى:و أقسم المشركون المكذبون للرسول ﷺ(بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ)قسما اجتهدوا فيه و أكدوه.

(لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ)تدل على صدق محمد ﷺ

تعنت المشركين فى طلب الآيات و عيد الله لهم 109-113

(لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ)و هذا الكلام الذى صدر منهم لم يكن قصدهم فيه الرشاد و إنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم و رد ما جاء به الرسول قطعا فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات و الأدلة الواضحات

التى–عند الالتفات لها–لا تبقى أدنى شبهة و لا إشكال فى صحة ما جاء به فطلبهم–بعد ذلك–للآيات من باب التعنت الذى لا يلزم إجابته بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم

فإن الله جرت سنته في عباده أن المقترحين للآيات على رسلهم إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها–أنه يعاجلهم بالعقوبة

و لهذا قال:(قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ)

هو الذى يرسلها إذا شاء و يمنعها إذا شاء ليس لى من الأمر شيء فطلبكم منى الآيات ظلم و طلب لما لا أملك و إنما توجهون إلى توضيح ما جئتكم به و تصديقه و قد حصل و مع ذلك فليس معلوما أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون و يصدقون بل الغالب ممن هذه حاله أنه لا يؤمن

و لهذا قال:–(وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ)

*قِيلَ:الْمُخَاطَبُ بِـ(وَمَا يُشْعِرُكُمْ) الْمُشْرِكُونَ وَ قِيلَ:-الْمُخَاطَبُ بِقَوْلِهِ:(وَمَا يُشْعِرُكُمْ)الْمُؤْمِنُونَ أَيْ:-

وَ عَلَى هَذَا فَتَكُونُ(لَا)فِي قَوْلِهِ:-(أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ)((صِلَةً)) كَمَا فِي قَوْلِهِ:(مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ)[الْأَعْرَافِ 12]

وَ قَوْلُهُ (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) [الْأَنْبِيَاءِ: 95]

أى: ما منعك أن تسجد إذ أَمَرْتُكَ وَ حَرَامٌ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ. وَ تَقْدِيرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:

*وَ مَا يُدْرِيكُمْ-أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ تَوَدُّونَ لَهُمْ ذَلِكَ حِرْصًا عَلَى إِيمَانِهِمْ-أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْهُمُ الْآيَاتُ يُؤْمِنُونَ﴿١٠٩﴾

(وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ)وَ نَحُولُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَ لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ فَلَا يُؤْمِنُونَ

(كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ)كَمَا حُلْنَا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْإِيمَانِ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

*أى:و نعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعى و تقوم عليهم الحجة بـــ:–

1–تقليب القلوب 2–و الحيلولة بينهم و بين الإيمان 3–و عدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم.

*و هذا من عدل الله و حكمته بعباده فإنهم الذين جنوا على أنفسهم و فتح لهم الباب فلم يدخلوا و بين لهم الطريق فلم يسلكوا فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق كان مناسبا لأحوالهم.

(وَنَذَرُهُمۡ)نتركهم(فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ)كفرهم-أو ضلالهم(يَعۡمَهُونَ)يترددون﴿١١٠﴾